جامعة الأزهر
حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالشرقية

الفخر بين الشعر بقنين

أعَدَّهُ

الدكتــور/ ماهر إبراهيم بسيوني

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية

العدد الرابع

للعام ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٧م

مُـقـدِّمـــةٌ

الحمدُ للهِ على نِعْمةِ الإسلامِ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خيرِ الأنامِ...!!

وبعْدُ...

فمن هُما الشَّريفانِ ؟ هُما فَرْقدانِ عَزِيزانِ فَتَحَا صَفْحةً في الفَخْرِ لم تكُنْ تَخْطُرُ على بالِ الشُّعراءِ...صَفْحةً تُضَافُ إلى أبنيةِ الشِّعْرِ المُحْكمةِ الشَّامخةِ.

الشَّريفانِ أخوانِ شاعرانِ سَارَ في الآفاقِ شِعْرُهُما ، وأنْبَاؤُهُما كأنَّها اللَّيلُ حينَ يَسْري ، إنَّهُما : (الشَّريفُ الرَّضي تـ (٤٠٦ه) ، والشَّريفُ المُرْتَضى تـ ٤٣٦ه) ، ومَنْ منَّا لم يَقْرأ لهُما ، أوْ يَسْمَعْ بهما وقد خَرجَا من كُلِّ عِزٍّ خُروجَ العُودِ بُزَّ من اللِّحَاءِ ، وانتمَيَا إلى دَوْحةِ أشْرفِ البيُوتِ ، دوحةٍ تجمَّعَتْ عن نبيٍّ أو وصيِّ نبي ، استمعْ إلى الرَّضي وَسَقِّ غُروسَ قلبكَ بفَخْرٍ نزيلهُ ماءٌ وعُشْبٌ:

جَدِّي النَّبيُّ ، وأُمِّي بِنْتُهُ ، وأبي وصِيُّهُ ، وجُدودِي خيرةُ الأُمَمِ [1]

ينتميانِ إلى عَصْرٍ هو أزْهى عُصُورِ الأدبِ.... إنَّهُ العَصْرُ العبَّاسيُّ الذي شَهِدَ مولدَ هذينِ الفحْلينِ اللَّذينِ نفَذا بذوقهما إلى أُسْلوبٍ مُصفًّى ، يجمعُ حيناً بينَ الجزالةِ والرَّصانةِ ، وحيناً بينَ الرِّقَّةِ والعُذوبةِ ...بينَ المعَاني والخواطِرِ التي لا تكادُ تُحْصى...بينَ خَصْبِ الفِكْرِ ورهافةِ الشُّعورِ...بينَ تحليلِ المَعَاني والمُلاءمةِ بينها وبينَ أحْدَاثِ حياتهما ، ولعلِّي بذلكَ أكونُ قد أجبتُ مَنْ يَسْألُ : لماذا الفَخْرُ ؟ ولماذا هذانِ الشَّاعرانِ ؟

أمَّا دَوَافِعِي فَهَاكَ هي:

---

١ ـ ديوانُ الشَّريف الرَّضي ١/ ١٨٧ ط دار صادر بيروت ١٣٨٠ه = ١٩٦١م.

(أ)- أردتُّ مُرَاجعةَ النَّظرةِ الذَّاهبة إلى أنَّ شاعريَّةَ الرَّضي تسبقُ شاعريَّةَ أخيهِ ، وها أنذا أدعُ القارئ يرى بعينهِ منْ سبقَ منْ دونَ انتصارٍ أوْ تحيُّزٍ لأخٍ على أخيهِ .

(ب)- تتبُّعُ خبيئةِ النَّوازِعِ النَّفسيَةِ لكلا الأخوينِ ، ومن ثمَّ التَّفتيشُ في توارُدِ الخواطرِ عندهُما ؛ لعلِّي أرْبَحُ مالم يربحهُ الباحثُونَ ، وأجزمُ أنِّي قد ربحتُ.

(ج)- سَعَادتي ومحبَّتي في مُحاورةِ نُصُوصِ هذينِ الشَّريفينِ ، ومن ثمَّ الحُكْمُ بما لَهُما ، وما عليهما في ضَوْءِ مكانتهما الشَّامخةِ.

(د)- جمالُ ظاهرةِ الفَخْرِ عندهُما ؛ لكثرتها ، وتنوُّعِ دوافعها بحيثُ تَسْرِقُ النَّظَرَ، وتستوقفُ الأبْكَمَ والأصمّ. وفي طريقي لدراستها عندهُما وقَعَتْ عَيْنِي على عِدَّةِ مُلاحظاتٍ هي:

(أ)- تأثَّرَ الرَّضي بـالمُتنبِّي تـ (٣٥٤هـ) غايةَ التَّأثُّرِ في الفَخْرِ بنفْسِهِ ، ولا أراني أبالِغُ حينَ أقولُ: لقد عاشَ في جلبابهِ ، وتنفَّسَ هواهُ ، ولو أمْكَنَ أنْ يَشْرَبَ من موضع فمهِ لفَعَلَ ، فانظُرْ قولهُ:

تغرَّبَ لا مُسْتحقباً غيرَ قُوتهِ ولا قائلاً إلا لما يَهَبُ المجْدُ (الطّويل)

فهذا من قولِ المُتنبِّي الشَّهيرِ على الوزنِ ذاتهِ : [1]

تغرَّبَ لا مُسْتعظماً غيرَ نَفْسهِ ولا قابلاً إلا لخالقهِ حُكْمَا

---

١ - ديوان المتنبِّي تح وتعليق د/ عبد الوهّاب عزَّام ص ١٦٢ ط الهيئة العامة لقصور الثَّقافة ، سلسلة الذَّخائر ، العدد (١) ١٩٩٥م.

هذا وقُوعُ الحافرِ على الحافرِ ، ولكنْ أينَ الرَّضي منْ أُسْتاذِهِ ؟ وفي بحثي غيرُ قليلٍ من هذا. وها هو ذا يقولُ عن (الرَّبيعِ الطَّلَقِ) على الوزنِ ذاتهِ أيضاً:

وهذا الرَّبيعُ الطَّلْقُ رقَّتْ فُرُوعُهُ نتيجةَ ذاكَ العَارِضِ المُتصبِّبِ

فهذا من قولِ البُحْتريّ تـ (٢٨٤ه) الشَّهيرِ أيضاً في مَدْحِ "الهيثمِ بن عثمان الغنَويّ":[١] [٢]

أتاكَ الرَّبيعُ الطَّلْقُ يختالُ ضَاحِكاً من الحُسْنِ حتّى كادَ أن يتكلَّما (الطَّويل)

وهُنا أيضاً أراهُ دونَ أبي عُبادةَ.

ورأيتُ من الشَّواعِرِ مَنْ تفوَّقتْ عليهما ، فها هي ذي الشَّاعرةُ العراقيَّةُ "عاتكة الخزرجي تـ (١٩٩٧م) تقولُ من قصيدتها " بَكَرَ الرَّبيعُ": (الكامل)

بَكَرَ الرَّبيعُ مُعطَّرَ الأنْفَاسِ ونَمَتْ روائِحُـهُ إلى الجُـلاسِ [٣]

تفوُّق "عاتكة" يعُودُ إلى قَصْرِ مجئ (الرَّبيعِ) على الهيثمِ دونَ النَّاسِ ، إذ قال "البُحْتريُّ" : (أتاكَ) ، بالإضافةِ إلى استخْدَامِ الفِعْلِ (كادَ) . ولكنِّي أرى في بيتهِ ما بهِ تميَّزَ ، نلمحُ ذلك في وحْدَةِ الحركةِ الإعرابيَّةِ المُتتاليةِ في : (الفاعلِ ، والنَّعْتِ ، والفعْلِ) ، تأمّل: (الرَّبيعُ الطَّلْقُ يختالُ) .

---

١ ـ ديوان البحتري تح / حسن كامل الصِّيرفي ٤ / ٢٠٨٧ ط دار المعارف ١٩٧٧ م .
٢ ـ هو أبو القاسم الهيثم بن عثمان الغنوي قائدٌ من أهلِ الجزيرةِ ، اشتركَ في حربِ بابك حينَ تولَّى الأفشينُ هذه الحرب. انظر : تاريخ الطَّبري ، أخبار سنة (٢٢٠ه) .
٣ ـ المجموعةُ الشِّعريَّةُ الكاملةُ ص ١٧٠ ط حكومة الكويت ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م.

إنَّ تكرارَ هذهِ الحركةِ بهذهِ الكيفيَّةِ يقولُ بأنَّ أبا عُبادةَ قد توفَّرَ على مَوْسقةِ شِعْرِهِ مَوْسقةً تستوقفُ الأصمَّ ، وآيةُ ذلك أنّه صَاغَ بيتهُ في ألفاظٍ رقيقةٍ مُخْتارةٍ تنمُّ عن جوِّ الرَّبيعِ السَّاحرِ الذي كادَ يتكلَّمُ من فرْطِ إعجابهِ بنفْسهِ . وعُدْ إلى بيتِ "عاتكة" تجد الفعلَ (بكرَ) يُوحي بأنَّ (الرَّبيعَ) غيرُ كسُولٍ ، يُبادِرُ إلى حاجتهِ سَحَرَاً ، وهو على ذلك سريعٌ قويٌّ . وتأمَّل الجمْعَ في: (الأنفاسِ ، الرَّوائحِ ، الجُلاسِ) إذ يُوحي بأنّه يملأُ جنباتِ المكانِ ، وهو (مُعَطَّرٌ) أيْ أطيبُ وأصْفى . وأراها في ذلك كـالشَّاعرةِ المصريَّةِ "مَلَكْ عبد العزيز تـ ١٩٩٩م" حين تقولُ من قصيدةِ "إلى أمواجِ النِّيْلِ" التي نظمتها سنة (١٩٥٥م) : [١]

الرَّبيعُ الحُلْوُ يا حسناءُ يَزْهُو فوقَ صَدْرِكْ (الرّمل)

"ملك" نعتَتْ (الرَّبيعَ) بنعْتٍ حسنٍ وهو (الحلو) ، ونادَتْ (أمواجَ النِّيلِ) بقولها: (يا حسناءُ) ، وعلى ذلك فـ (الرَّبيعُ ، وأمواجُ النِّيلِ) في عينها في درجةٍ واحدةٍ من الجمالِ ، أضف إلى ذلك مجيء الفعلِ المُضارعِ (يزْهُو) الذي يُوحي بأنَّ ربيعَهَا كربيعِ "البُحْتريّ" ، فهو عندهُما مُعْجبٌ بنفْسهِ ، مزْهُوٌّ على غيرهِ ، ولا ننسى دِقّةَ قولها: (فوق صَدْرِكْ) ، فالرَّبيعُ يقفُ على صفْحةِ (أمواجِ النِّيلِ) كأنّه الطّاووسُ.

وأرى هؤلاءِ قد تفوَّقوا على " أبي تمَّامٍ" تـ (٢٣١هـ) حين قال يمدحُ (المُعْتصم) : [٢]

١ ـ الأعمالُ الشِّعريَّةُ الكاملةُ ص ٦٩ ط الهيئة المصريّةُ العامة للكتاب ٢٠١٠م.
٢ ـ ديوان أبي تمَّام بشرح الخطيب التِّبْريزي تح / محمّد عبدهُ عزَّام ٢ / ١٩١ ط ٤ ط دار المعارف ١٩٨٣ م .

دُنْيا معاشٍ للورى حتّى إذا جُلِيَ الرَّبيعُ فإنَّما هى منظرُ (الكامل)

و "ابن المُعْتزّ" تـ (٢٩٦هـ) حين قال على الوزنِ ذاتهِ من قصيدة "دِرْياقُ الهَمِّ" : [١]

وانظُرْ إلى دُنْيا ربيعٍ أقبلتْ مثلَ النِّساءِ ، تبرَّجتْ لِزُناةِ

و "العقَّاد" تـ (١٣٨٣هـ = ١٩٦٤م) من قصيدتهِ "الشِّتاءُ والرَّبيعُ" : [٢]

كلُّ خافٍ يُريدُ أن يتجلَّى في الرَّبيعِ المُزخرفِ المَشْهُودِ (الخفيف)

لا شيء في صُورةِ (الرَّبيعِ) عند هؤلاءِ اللَّهُمَّ إلا نعْتهِ بـ (الزُّخرفِ المشْهُودِ) عند الأخيرِ . ونلاحِظُ تقاربَ المعْنى في بيتي الأوّل والثّاني ، فـ (الدُّنيا) عند الأوّلِ (منظرٌ) ، وعند الثّاني كـ (النِّساءِ) ، وهذا من تمامِ إبداعهِ ، وإحسانهِ المشْهُورِ.

(ب)- أمْسَكَتْ يَدِي بنماذجَ من الكثْرةِ بمكانٍ تدلُّ على شُيوعِ ظَاهرةِ (الاسْتِجْدَاءِ) في شِعْرِ الرَّضي لا سيَّما المَدْحِي ، وهذا أمرٌ عجيْبٌ جدَّاً ؛ لعلمنا أنَّ الرَّضي يَنْتمي إلى أشْرفِ البُيوتِ ، وتربَّى في بيْتِ العِزِّ والنِّعْمةِ ، في بيتِ يسارٍ وغِنَى ، وممَّا جاءَ من ذلكَ قولُهُ للطائعِ سنة (٣٧٧ه):

أعنِّي على دَهْرٍ رَمَاني بصرفهِ وردَّ عنَاني وهْو في الغُلواءِ (الطّويل)

وقولُهُ لبهاءِ الدَّولةِ: (الوافر)

---

١ - ديوان ابن المُعْتزّ تقديم / كرم البُسْتاني ص ١١٣ ط دار صادر بيروت بدون تاريخ .
٢ - خمسة دواوين للعقَّاد لـ / عبَّاس محمود العقَّاد ص ٤٥١ ط الهيئة المصريَّةُ العامةُ للكتابِ ١٩٧٣م .

بهاءَ الدَّولةِ المنْصُورَ إنِّي دعوتُكَ بعدَ لأيٍ منْ دُعائي

فالفعلانِ: (أعنِّي ، ودعوتُكَ) يدلانِ على العَوَزِ والفَاقةِ وهو الشَّريفُ الرَّضي. ودَعْ عنكَ هذا لتأمُّل قولَهُ لهُ في موضعٍ آخرٍ: (الكامل)

أنا عبْدُ أنْعُمِكَ التي نَشَطَتْ أملي ، وأنهضَ عِزُّها مُنني

لا خلافَ على أنَّ الرَّضي كسِبْطِ بن التَّعاويذي تـ (٥٨٣ه) حين يقولُ لعضُدِ الدَّولةِ:

دعوْتُكَ مُسْتجيراً منْ زمَاني بجودِ يديكَ فاصْغُ إلى دُعائي (الوافر)

وأعلنها صريحةً مرَّةً أخرى فقال: [1] (الطّويل)

دعوْتُكَ والأحْدَاثُ تَقْرَعُ مَرْوتي فكُنْتَ مُجيري من أذاها ومُسْعِدِي

إنّ قولَهُ :"مُسْتجيراً"، والفعل :"تقْرعُ" يوحي بحادثةٍ لا تدعُ مالاً ولا ولداً ، فهو في أمْرٍ عظيْمٍ ، وداهيةٍ تهْلكهُ، ولذا لا نَعْجبُ حين يأتي بقولهِ :"دعوتُكَ" في صَدْرِ البيتينِ ، إذْ يريدُ من عضُدِ الدَّولةِ أن يحوطهُ ، ويكْنفهُ ، ويحفظهُ من قوارعِ الزّمنِ المقارعِ ، وتأمل الجمعَ في "الأحداثِ"، والتّخصيصَ في قوله :"مَرْوتي"، فأحداثُ اللَّيالي الضَّواري تقومُ به وتقْعدُ ، والجميلُ أنّ عضُدَ الدَّولةِ لم يكْفها عنه فقط بل أغْناهُ وكفَاهُ حتى أسْعَدهُ ؛ لأنه كفْءٌ كريمٌ ، يجيرُ من يَسْتجيْرُ ، نلمح ذلك في قوله :"فكنتَ مجيري٠٠٠٠٠٠). ولم أجِدْ شيئاً من ذلك عندَ المُرْتضى ، بل

---

١ ـ ديوان سبط بن التَّعاويذي تصحيح د . س. مرجليوث ص ١٣ ، ١١٢ ط دار صادر بيروت ١٩٠٣م.

وجدتُّهُ يقولُ من (داليّةٍ) يمْدَحُ فيها الخليفةَ الطّائعَ للّهِ ؛ لمودّةٍ وأسْبابٍ مُسْتحْكمةٍ كانت بينهما : [1]

لا دَرَّ دَرُّ الانتجـاعِ فإنّـه دَنَسٌ لثوْبِ المُعْتفِي والْمُفْضِلِ (الكامل)

لكأنِّي بالمُرْتضى يقولُ منْ يَسْلُكُ هذا السَّبيلَ كالإبلِ الجَرْبى ، تُعْزلُ عن المبْركِ ؛ لئلا تَسْرَحَ في أخواتها فتُعْدِيَهَا.

(ج)- التَّناقُضُ العجيبُ في نُصُوصِ الأخوينِ ، وهو من الكثْرةِ بمكانٍ ، وها نحنُ نُدلِّلُ على ذلك بقولِ الرَّضي: (المُنْسرح)

تلعبُ بالنَّائباتِ أنْفُسُنَا كأنَّها في أكُفِّنا زَلَمُ

ثمَّ قالَ في موضعٍ آخرٍ على الوزنِ ذاتهِ:

تلعبُ بي النَّائِباتُ واغِلةً كما تهزُّ الزَّعازِعُ الغُصُنَا

ويقولُ أخوهُ: (الكامل)

بيني وبينَ تجلُّدي وتماسُكي - والعِيْسُ تُرْحَلُ للفراقِ- رِتَاجُ

وها هو ذا يقولُ في موضعٍ آخرٍ: (السَّريع)

دَعَ الهوى يتبعهُ الأخرقُ لا صبوةَ اليومَ ولا مَعْشَقُ

وهكذا ... وهو كثيرٌ .

---

١ - ديوان الشّريف المرتضى تح/ رشيد الصّفّار ، راجعه وترجم أعيانه د/ مصطفى جواد ، تقديم الأستاذ الشّيخ / محمّد رضا الشبيبي ٨٧/٣ ط دار إحياء الكتب العربيّة ، عيسى البابي الحلبي ١٩٥٩ م .

(د)- زاحَمَ الرَّضي الخُلفاءَ ، والأُمراءَ ، والوزراءَ الفَخْرَ بنفْسهِ ، وزادَ على ذلك فزاحمَ أباهُ ، ومن مظَاهرِ فَخْرِهِ أيضاً أنَّهُ كانَ يبدأُ القصيدةَ بالفَخْرِ على غيرِ عَادةِ الشِّعْرِ والشُّعراءِ ، كأن يقول:

المجْدُ يعْلَمُ أنَّ المَجْدَ مِنْ أرَبي ولو تماديْتُ في غيٍّ وفي لَعِبِ (البسيط)

ولمْ أجدْ مثلَ ذلكَ عندَ أخيهِ.

(ه)-لاحظْتُ أنَّ هذا الفنَّ يَتَعَانَقُ عندَهُما تعانُقاً حَارًّا مع فنِّ (الشَّكْوى)، إذ وجدتُّهما مُتلازمينِ في كثيرٍ من قصائدهما، وعِلَّةُ ذلكَ فيما قرأتُهُ أنَّ الرَّضِي والمُرْتَضَى حين يَشْكُوانِ فإنَّما يَشْكُوانِ هُمُومَ المَجْدِ، ونَصَبَ السَّعْي في طلبِ العُلا، كأن يقول الأوَّلُ سنة (٣٧٩ه):

سألتمِسُ العُلى إمَّا بِعُرْبٍ يُروّونَ اللهاذِمَ أوْ بِرُومِ (الوافر)

ويقول الثَّاني: (الطّويل)

عَشِقْتُ العُلا لا أبْتَغِي بَدَلاً لها ولا عوضاً والعاشقونَ ضُروبُ

فالأوَّلُ مُلْتَمِسٌ، والثَّاني عاشِقٌ، والمَعْنى في عَيْني من القُرْبِ بمكانٍ، فكلاهُما يتَهَالكُ في اللِّحاقِ بِقِطَارِ العُلا، نلمحُ ذلكَ في الفِعْلِ: (يُروّون)، وقول الثّاني: (لا أبتغي بدلاً لها)، وكأنِّي بالعُلا خُبْزَ حياتهما اليَوْميّ ؛ لا سيَّما الرَّضِي الّذي لهُ في كُلِّ ليْلٍ مَطَامِعٌ لا تنتهي، تأمَّلهُ يقولُ من (داليَّةٍ) في أبي سعيد بن خلف وقد تخلَّصَ من نكبةٍ لحقتهُ:

فلأشْرَبَنَّ مَنَاقِباً بِدَمي، وَلأنْقُبنَّ على العُلى جُهْدِي (الكامل)

ويقولُ للصاحبِ بنِ عبَّاد تـ (٣٨٥هـ) [١] سنة (٣٨٥هـ) على الوزنِ ذاتهِ:

فلأَنْهَضَنَّ إلى المَعَالي نَهْضَةً مِلْءَ الزَّمانِ تَفِي بِطُولِ قُعُودِي

فالأفعالُ: (فلأشربنَّ، ولأنْقُبنَّ، فلأنهضنَّ) تقولُ بأنَّهُ لن يتوبَ عن طلبِ العُلا وإن لُوِيت عنْهُ الرِّقابُ، وكيفَ يتُوبُ مَنْ ركائبهُ مُقَلْقَلَةٌ ما بينَ غَوْرٍ إلى نَجْدِ ؟

وتمرُّ بقارئ أشعارهما قصائدُ كثيرةٌ في الفَخْرِ يَذْكُرانِ فيها معاليهما، ثمَّ يَشْكُوانِ سُوءَ حظِّهما، وإنكارِ فَضْلهما، ووقوفَ الحواجزِ دونَ رغباتهما، كأن يقول الرَّضِي: (البسيط)

فَكَمْ أُرِيْغُ العُلى، والحظُّ في صَبَبٍ وَكَمْ أقولُ: لَعَاً، والجَدُّ في تَعَسِ

ويقولُ المُرْتَضَى: (الكامل)

حتّى متى أنا في ثيابِ "إضامةٍ" أقْرِي المناجي زَفْرَةَ المجْهُودِ

إلى أن يقول:

أبْغِي الرَّذاذَ من الجَهَامِ وتارةً أرجُو وأمْرِي دَرَّ كُلِّ جَدُودِ

كلاهُما جازِعٌ، عاتِبٌ على (الدَّهْرِ) ؛ لأنَّهُ كَبَا بهما، وعَمِيَ عن بيانِ فَضْلِهِمَا، تأمّل (كم) ، وقولَ المُرْتَضَى: (حتّى متى)، بالإضافةِ إلى هذهِ

---

١ ـ وزيرٌ غلبَ عليهِ الأدبُ، وكانَ من نوادرِ الدَّهْرِ علماً، وفضلاً، استوزرهُ مُؤيِّدُ الدَّولةِ، وتوفى بالريِّ، وَنُقِلَ إلى أصبهان فَدُفِنَ فيها، ولهُ تصانيفٌ جليلةٌ. انظر: معجم الأدباء ٦٦٢/٢، معاهد التّنصيص ١١١/٤، تاريخ ابن الوردي ٣١٢/١، وفياتُ الأعيان ٧٥/١، الأعلام ٣١٦/١.

الأفعالِ: (أُلْوى، أُذادُ، أبْغِي، أرْجُو)، ولكنَّهُما سُرْعانَ ما يَطْرحانِ ذلكَ كُلِّهُ عن كاهلهما، فنراهُما جبلينِ شامخينِ.. أوْ أسدينِ عظيمينِ، يُقارعانِ الخُصومَ، ويَسْتعليانِ بمناقبهما، ومناقبِ أرُومتهما .

(و)- وقعَتْ عَيْني على صُورةٍ فريدةٍ للمُرْتضى يفتَخِرُ فيها على ذئْبٍ عَارِي الجَنَاجِنِ ، زَارَهُ بعْدَ الهُدوِّ ؛ توصُّلاً إلى زادهِ ، ولكنَّهُ لم ينْجَحْ ؛ لدهاءِ المُرْتضى الذي يقولُ: (الطّويل)

يُخادِعُني مِنْ كيْسِهِ عَنْ مطيَّتي ولمْ يَدْرِ أنِّي منْهُ أدْهَى وأكْيَسُ

وأقْعَى إزاءَ الرَّحْلِ يطلبُ غِرَّةً ويُلْقي إليهِ الحِرْصُ أنْ سوفَ أنْعَسُ

فقلتُ لهُ لمَّا تَوالى خِدَاعُهُ : "تعزَّ" فما عِنْدِي لنَابِكَ مَنْهَسُ

وأُحِبُّ أنْ أُنوِّهَ إلى أنَّني أغْمَضْتُ عَيْني عَمْداً عن بَعْضِ الظَّواهرِ الفنيَّةِ ؛ خشيةَ أنْ يطُولَ بحثي أكثرَ من هذا كـ (صيغِ المُبالغةِ ، والتَّصْغيرِ ، وحُسْنِ التَّقْسيمِ ، وتوازي الصِّياغةِ ، وعُيوبِ القافيةِ) ، فتلكَ الظَّواهرُ تَصْنعُ بحثاً.

والآن هذا بحثي انْتَظَمَهُ ثلاثةُ مباحثٍ احتَكَمَتْ إلى المنهجينِ: (التَّاريخي ، والذَّوْقي) هي:

المبحثُ الأوَّلُ : أنْواعُ الفَخْرِ .

المبحثُ الثّاني : دَوَافِعُ الفَخْرِ .

المبحثُ الثّالثُ : خصائصُ فنِّيَّةٌ .

وتبقى كلمةٌ وهي أنِّي قدَّمْتُ أنْواعَ الفَخْرِ على دوافعهِ ؛ نظراً لقَلَّةِ ما جاءَ في الدَّوافعِ من مادةٍ علميَّةٍ.

المَبْحَثُ الأوَّلُ:

أنْــوَاعُ الـفَــخْــــرِ

الفَخْرُ فنٌّ أصِيْلٌ عندَ العربِ، وبابٌ واسِعٌ من أبوابِ شِعْرِهم، يكشِفُ عن خلالِهم الأثيرةِ، وطبائعِ نُفُوسهمِ الأبيَّةِ، وقد رافقَ الشِّعْرَ في جميعِ تطوُّراتِه، و" نَبَتَ نَبْتاً تلقائيَّاً مِنْ نُفُوسٍ تَهْوى العِزَّةَ والمَجْدَ... نَبَتَ في إيمانٍ ثابتٍ بالكرامةِ العربيَّةِ، والعِزَّةِ البدويَّةِ، وقد سَاعَدَ عليهِ ما كانَ هُنَالِكَ من أسواقٍ تَبْسُطُ أمامَ القبائلِ ميادينَ القولِ والمُفَاخَرَةِ".[1]

وهو من الفُنُونِ التي تدلُّ على فِطْرةِ الإنسانِ، وتعبيرِهِ عن ذاتِهِ وقومِهِ. "واستحسنَ النُّقَّادُ فيهِ كُلَّ ما استحسنوهُ في المَدْحِ" [2]، أيْ أنَّ من يفتخرُ بنفسِهِ أو بقومِهِ ينبغي أن يتَّجِهَ إلى الفضائلِ النفسيَّةِ، والمفاخرِ العظيمةِ لا إلى ما دونَ ذلك.

ولعلَّ السِرَّ في أنَّهُ "جائزٌ في الشِّعْرِ دونَ غيرِهِ من فُنونِ القولِ أنَّهُ اتَّبعَ فيهِ سُنَنَ شُعراءِ العَصْرِ الجاهلي، فإنَّ المُجْتمعَ كانَ يحتاجُ من الشَّاعرِ يومئذٍ أن يشيدَ بفضائلِ قبيلتِهِ، وأن يَرْفعَ من شأنِها في نَظَرِ غيرِها من القبائلِ، وكانَ الشِّعْرُ يومئذٍ سِجلَّ المفاخرِ، ومُقيِّدَ المآثرِ، فكان من ميادينِهِ الفخرُ بالقبيلةِ، والفخرُ بالنَّفْسِ... ونَهَجَ الشُّعراءُ بعدئذٍ منهجَ الشَّاعرِ الجاهليَّ ، فبقى مجالُ الفَخْرِ مفتوحاً أمامَ الشَّاعرِ.. مُغْلقاً أمامَ غيرِهِ من النَّاسِ."[3]

---

١ ـ الفخـرُ والحماسـةُ لـ / حنَّـا الفـاخُوري ص ١١ ط٥ ط دار المعـارف ١٩٩٢م (بتصرُّف).

٢ ـ العُمْدةُ في محاسنِ الشِّعْرِ وآدابِهِ ونقدِهِ تح/ محمَّد مُحْيي الدِّين عبد الحميد ٢/ ١٤٣ ط٥ ط دار الجيل ١٤٠١هـ= ١٩٨١م.

٣ ـ أُسسُ النَّقْدِ الأدبـي عنـدَ العـربِ د. أحمـد أحمـد بـدوي ص ٢١٩ ط نهضـة مصـر ١٩٩٦م.

ولا شكَّ أنَّ فنَّ (الفَخْرِ) يَشْمَلُ التغنِّي بالشَّجاعةِ والإقدامِ، بالأصلِ والحسبِ والنَّسبِ، بالجُودِ والكرمِ... يشملُ التغنِّي بالآباءِ والأجدادِ، بالقبيلةِ والعشيرةِ، بحروبها وانتصاراتها، بأصالتها وأصالةِ من فيها. وقد خَاضَ الشَّريفانِ غِمَارَ هذا الفنِّ، وانخرطا فيه انخراطاً مثَّلَ ظاهرةً غنيَّةً بأنْواعِ المفَاخرِ الطيِّبةِ التي تكشَّفتْ لي عن مَعَانٍ أصيلةٍ.. شريفةٍ ، كما نرى في أنواعِ المفَاخِرِ التَّاليةِ:

(أ)- الفَخْرُ بالأهْلِ:-

القارئُ في فَخْرِ الشَّريفينِ بالأهْلِ يُلاحِظُ أنَّهُ قد ارْتَقَى إلى الفَخْرِ بالنبيِّ (ﷺ)، وقد لاحظْتُ عليهما أنَّهُما كانا حريصينِ على اسْتفراغِ كُلِّ جِهَاتِ الفَخْرِ بهِ (ﷺ)، فافتخرا بكونهِ (رسُولَ اللهِ)، فقالَ الرَّضِي: (الطَّويل)

وَرِثْنَا رَسُولَ اللهِ عُلْوِيَّ مَجْدِهِ وَمُعْظَمَ ما ضمَّ الصَّفا والمُعرَّفُ

وقالَ المُرْتَضَى: (الوافر)

دَفَعْنا عنْ رسُولِ اللهِ طَعْناً وَضَرْباً بالصَّوارمِ مَنْ لَقِينا

فالرَّسُولُ (ﷺ) في البيتِ الأوَّلِ ميراثُ الهاشميِّينَ الذينَ دافعُوا عنهُ في البيتِ الثَّاني بسيوفٍ قاطعةٍ، وأجسادٍ تبرئُ من المَخَازي. ونُلاحِظُ أنَّ كليهما يتحدَّثُ بصيغةِ الجَمْعِ في الفعلينِ: (وَرِثْنا، دَفَعْنا) ؛ للدِّلالةِ على أنَّ كُلَّ هاشميٍّ يَسْتَرْخِصُ حياتَهُ فِدَاءَ رسُولِ اللهِ (ﷺ)، وإن كُنْتُ لا أسْتَسيغُ للرَّضِي قولَهُ: (وَمُعْظَمُ)، إذ الأولى أن يقولَ مثلاً: (وما كانَ مِنْ أمْرِ .....). وافتخرا بكونهِ (ﷺ) (نبيَّ اللهِ)، فقال الرَّضِي: (البسيط)

إنِّي لَمِنْ مَعْشرٍ إنْ جُمِّعُوا لِعُلىً تفرَّقُوا عن نبيٍّ أوْ وَصيِّ نبي

وقال المُرْتَضَى: (الوافر)

وأنَّ إلى نبيٍّ أوْ وصيٍّ نُسِبْتُ، فَمَنْ لهُ مِثْلُ انتسابي ؟

بَيْتُ الرَّضِي أدقّ ؛ لأنَّهُ افتَخَرَ بجميعِ أهلِهِ، أمَّا المُرْتَضَى فقصَرَهُ على النَّبيِّ وَعَلِيّ المقصود بـ (الوصيّ). وقولهُ: (وأنَّ) لا يُناسِبُ قولَهُ: (نُسِبْتُ)، والأجودُ أن يقولَ كما قالَ الرَّضِي: (وأنِّي)، وكما قال هو في موضعٍ آخر: (الوافر)

وإنِّي إنْ فَخَرْتُ على البرايا فَخَرْتُ بمن يبذُّ الفَاخِرِيْنَا

ولاحظنا أنَّ كليهما نَعَتَ عليَّاً بـ (الوصيّ)، وهذا غيرُ لازمٍ ؛ لأنِّي وجدتُّ الرَّضِي يُطْلِقُهُ على أبيهِ في قولِهِ: (البسيط)

جَدِّي النَّبيُّ، وأُمِّي بِنْتُهُ، وأبي وَصِيُّهُ، وَجُدُودي خيرةُ الأُمَمِ

وقولهُ: (وجُدودي خِيْرةُ الأُمَمِ) كقولِهِ في موضعٍ آخرٍ: (الرَّمل)

لَسْتُ بالعَاذِرِ جَدِّي إنْ هَوَى، وجُدُودي في العُلى أعْلَى الأُمَمْ

وعِنْدِي أنَّ الشَّطْرَ الأوَّلَ من البيتِ الثَّاني من مزالقِ الرَّضِي الشِّعريَّةِ.

وافتَخَرَا بكونهِ (جدَّهما)، فقال الأوّلُ: (المُتقارب)

فَمَنْ ذا أُسَامِي، وَجَدِّي النَّبيـ ـيُ أمْ مَنْ أُطُاوِلُ أمْ مَنْ أُلاحِي ؟

وقال الثّاني: (الكامل)

وبجَدِّنا وَبِصِنْوِهِ دُحِيَتْ عن الـ ـبيتِ الحَرَامِ وَزُعْزِعَتْ أصنامُهُ

بَيْتُ المُرْتَضَى أجودُ ؛ لأنَّهُ جَعَلَ المُصْطفى (ﷺ) جَدَّاً لِكُلِّ هاشمي وطالبي وعَلَوي، إذ قال: (وبجدِّنا) في حين قال الرَّضِي: (وَجَدِّي). والفعلُ: (دُحِيتْ) يُصوِّرُ دَفْعَ النَّبيِّ (ﷺ)، وَصِهْرِهِ لِمَدَاحِي مكَّةَ، ورميها بعيداً عن وجهها. وأتى المُرْتَضَى بـ (الضَّميرِ) العائدِ عليهِ (ﷺ)، فقال:

ونحنُ فديناهُ الرَّدى في فراشهِ وللموتِ إرْقَالٌ إليه وَعْجَرَفُ (الطّويل)

وقال: (الوافر)

وقيناهُ وَمَنْ يَهْوى هَواهُ بأسيافِ الجِلادِ وما وُقِيْنَا

فالمُرْتَضَى يُشِيرُ ويفخرُ بما لأجدادهِ "علي بن أبي طالب" تـ (٤٠ﻫ)، وأبنائهِ الكِرام من جهادٍ ومآثرَ في سبيلِ نُصْرةِ الدِّينِ، والدِّفاعِ عنِ الإسلامِ، وفداءِ المُصْطفى (ﷺ) بالنَّفْسِ والنَّفيسِ. والفعلان: (فديناهُ، وقيناهُ) يُوحيانِ بالترقِّي في الدِّفاعِ عنْهُ (ﷺ)، والضَّميرُ في (ونحنُ) يُفِيدُ قَصْرَ الفعْلِ على أجدادِ المُرْتَضَى الّذي أكَّدَ هذا المعني في قولهِ أيضاً:

وَوَقَى الرَّسُولَ على الفراشِ بنفسهِ لمَّا أرادَ حِمَامَهُ أقوامُهُ (الكامل)

فالبيتُ يُشيرُ إلى مبيْتِ عليٍّ – ﷺ- على فراشِ المُصْطفى (ﷺ) ليلةَ الهجرةِ، وهو قريبٌ من بيتهِ السَّابقِ: (ونحنُ فديناهُ الرَّدى في فراشهِ...إلخ).

والمُوازنةُ بينهُما تقولُ بأنَّ الأوَّلَ أجودُ ؛ لما فيهِ من صُورةٍ دالَّةٍ مُؤَثِّرةٍ، فللموتِ إقدامٌ في هوجٍ... ولا يَقْصِدُ في مَشْيهِ من نشاطهِ، والثَّاني

أصدقُ، فمن فداهُ (ﷺ) (عليٌّ)، وليس كلُّ علويّ. وأراهُ يُشِيرُ بقولهِ: (وما وُقِيْنا) إلى هذا الموقفِ المُخْزي من أهْلِ (الكُوفةِ) الّذينَ كانُوا السَّببَ المُبَاشِرَ في وقُوعِ مَذْبحةِ (كربلاء) ؛ بإعلانهم مُؤازرةَ الحُسين تـ (٦١ه) – ﷺ- في حربهِ مع يزيد تـ (٦٤ه)، إذْ كانت رُسُلُهم تَتْرى كالغاراتِ على الحُسينِ، تُطالبهُ بالقُدومِ إلى الكُوفةِ ؛ لِنُصْرتهِ، وحينَ جَدَّ الجِدُّ تخلَّوا عنهُ، أنْصِتْ إلى الرَّضي يُخاطبهُ: (الخفيف)

يا ابنَ بنْتِ الرَّسُولِ ضيَّعَتِ العَهْـ ـدَ رِجالٌ والحافِظُونَ قليلُ

وإلى المُرْتضى : (الطّويل)

كِرَامٌ سُقُوا ماءَ الخديعةِ وارْتَووا وَسِيْقُوا إلى الموتِ الزُّؤامِ فأوجفوا

ممَّا جعلهُ يُواجِهُ قَدَرَهُ المحتومَ بشجاعةٍ عُرِفَتْ عن آلِ البيتِ، أرأيتَ قولَ الرَّضي:

آلُ النَّبيِّ، ومَنْ تَقَلَّـ ـبَ في حُجُورِهِمُ الكِتَابُ

خُلِقَتْ لَهُمْ سُمْرُ القَنَا، والبيْضُ والخيْلُ العِرَابُ (م الكامل)

فالفعلُ: (خُلِقَتْ) يقولُ بأنَّ آلَ البيتِ أهلُ المُقاتلةِ والمُفاتكةِ، والمُعْجِبُ أنَّهُم في هذا الأمرِ سواسيةٌ، يقولُ بهذا قولُهُ: (ومنْ تقلَّب). وحين قرأتُ (لاميَّةَ) الرَّضي، و (فائيَّةَ) أخيهِ السَّابقتينِ وجدتُّ الأخيرةَ في غايةِ الحُسْنِ والجمالِ ؛ لأنَّها تصويرٌ حيٌّ لمأساةِ الحسينِ، وكأنِّي بالمُرْتضى كان حاضراً أرْضَ الطُّفُوفِ (كربلاء) يَسْمعُ ويرى مَصْرَعَ جَدِّهِ في مَسْرَحِ الغَدْرِ والخيانةِ لمن أكْرَهُوا القَنَا والشِّفارَ للعسْكَرِ الجرَّارِ، عَسْكرِ يزيد.

وجَمَعَا بينَهُما في الفَخْرِ، فقال الأوَّلُ: (الطّويل)

أُعِدُّ لِفَخْري في المَقَامِ مُحمَّداً وأدْعُو عليَّاً لِلْعُلَى حينَ أرْكَبُ

وقال الثَّاني: (الكامل)

أمَّا الرَّسُولُ فقد أبانَ ولاءَهُ لو كانَ ينفعُ "جائراً" أن ينذرا

الضَّميرُ في (ولاءهُ) يرجعُ إلى "علي بن أبي طالب" جدّهما، إذ يرتفعُ نسبُهُما إليهِ- رضى اللهُ عنهُم-. ويُشيرُ البيتُ إلى قولِ المُصْطفى (ﷺ): " مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ، اللَّهُمَّ والِ مَنْ وَالاهُ"، أيْ أحْبِبْ مَنْ أحبَّهُ وانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ. وعُدْ إلى الفعلينِ: (أُعِدُّ، وأدْعُو) إذ يتكشَّفانِ عن حالةٍ فخريَّةٍ تتغنَّى بنَشْرِ المَنَاقِبِ، والشَّرفِ، نلمحُ هذا أيضاً في قولهِ للصاحِبِ بنِ عبَّاد تـ (٣٨٥هـ) سنة (٣٧٥هـ): (الطّويل)

وَلْوْلاكَ مَا أوْمَى إلى المَدْحِ شَاعِرٌ يَعُدُّ عَلِيَّاً لِلْعُلَى وَمُحَمَّدا

ظَاهِرُ الشَّطْرِ الثّاني أنَّ رسُولَ اللهِ وعليّاً موضعَا العُلا، وقد كانَ (ﷺ) في البيتِ السَّابقِ موضِعَ الفَخْرِ، وكانَ عليٌّ موضِعَ العُلا، وهذا أدقّ.

ووجدتُّ أبْعَدَ من هذا، فهذا الرَّضِي يدعو عليَّاً بـ (الوالدِ) في قولهِ على الوزنِ ذاتهِ:

أبُونَا الّذي أبْدَى بِصفّينَ سَيْفَهُ ضُغَاءَ ابْنِ هِنْدٍ والقَنَا يتقصَّفُ

فـ "عليٌّ" – ﷺ- والدٌ أعْلَى، ووالِدُ الرَّضِي والِدٌ أدْنَى، تأمَّل:

وهُنَا أبِي الأدْنَى الّذي تعرفونَهُ مُقدَّمُ مَجْدٍ أوَّلٌ ومُخلَّفُ

هذا ولا ريب يُعمّقُ في نَفْسِ القارئ مكَانةَ عليٍّ -ﷺ- في نَفْسِ الرَّضِي الّذي آمنَ بأنَّهُ صَاحِبُ الأمْرِ بعْدَ رسُولِ اللهِ ، واعْتَقَدَ أنَّهُ أفضلُ النَّاسِ بعْدَهُ (ﷺ) كما قال د. عبد الفتَّاح محمّد الحلو. ([1]) ولعلَّكَ لاحظتَ أنَّهُ قالَ: (أبُونا) دونَ (أبي) ؛ للدِّلالةِ على تَمَامِ الفَخْرِ. وعُدْ إلى البيتِ الأوَّلِ ثمَّ اقْرأ مَعِي: (الكامل)

واسْألْ بهِ صِفِّينَ إنَّ زَئِيْرَهُ أوْدَى بِكَبْشِ أُميَّةَ النَّطَّاحِ

هذا في عَيْني أدقّ ؛ لأنَّ زئيرَ من زأرَ أهلكَ مُعاوية تـ (٦٠)ه، فما بالنا لو قاتلهُ !

كذلك افتَخَرَا بـ (الحسنِ) – أبو محمّد تـ (٥٠ه)-، و(الحُسينِ) – أبو عبد الله تـ (٦١ه)-، و(أُمِّهما)- فاطمةَ الزَّهْراءِ ، أوَّلُ من جُعِلَ لهُ النَّعْشُ في الإسلامِ تـ (١١ه)-، فقال الرَّضِي:

أخَذْنا عَلَيهِمْ بالنبيِّ وفاطِمٍ طِلاعَ المسَاعي من مَقَامٍ وَمَقْعَدِ (الطّويل)

وطُلْنَا بِسِبْطَيْ أحْمدٍ ووصيِّهِ رِقَابَ الوَرَى من مُتْهمينَ وَمُنْجِدِ

وقال أخوهُ: (الرّجز)

مِنَّا النبيُّ والوصِيُّ صِنْوُهُ ثُمَّ البتُولُ والحُسينُ والحَسَنْ

وافتَخَرَ المُرْتَضَى بـ (عمِّهما) "العبَّاسُ بن عبد المُطَّلب" تـ (٣٢ه) فقالَ بعدَ البيتِ السَّابقِ:

---

١ ـ الشّـريفُ الرَّضـي حياتـه ودراسـة شـعره ٩٤/١، ٩٥ط١ ط هجـر ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

وعمُّنا العبَّاسُ، مَنْ كعمِّنا ؟ أبناؤُهُ الغُرُّ مصابيحُ الزَّمَنْ

تأمَّل فِعْلي الرَّضِي: (طُلْنا، أخَذْنا)، وقولَ المُرْتَضَى: (مِنَّا)، فكلاهُما يتأنَّقُ في الفَخْرِ، وينطلقُ لِمَرْمى عُلا الآباءِ والأجدادِ الذين لم يَسْتَبْقُوا فَضْلاً لأحدٍ ولا مَجْداً، أرأيتَ الاستفهامَ في قولهما: (فما بَعْدَ جدَّينا ؟)، (من كعمِّنا ؟) . والفَخْرُ بالأهْلِ يَشْمَلُ أيضاً:

(١)- الفَخْرَ بالأب:-

بالبحْثِ في معَاني الفَخْرِ بـ (الأب) تـ (٥٤٠٠) عندهُمَا وجدتُّها من القُرْبِ بمكانٍ، فهو في عَيْنِ الرَّضِي: (عينُ الزَّمانِ، نجمُ العُلى، تدارَكَ أطنابَ الخلافةِ، جرَّ أرْسَانَ المَعَالي، طاسَ أطْنَابَ الأُمور، طأطأ فرعَ المجدِ، استفرغهُ، عظَّمَ قَدْرَ الدِّينِ، حمىَ الحجَّ، احتلَّ المظالمَ رُتْبةً .... طيِّبُ الفرعِ، ملكَ الفخارَ... هُمامٌ ما يزالُ بكُلِّ أرضٍ، جريءٌ، حازمُ الرَّأي، بوجههِ ماءُ العزِّ ذائبٌ، وكفُّهُ مأوى كُلِّ مَكْرُمةٍ... لهُ رأيٌ يسبقُ قولَ المُشير، وعزٌّ موروثٌ، ونسبٌ كالنَّقْدِ ثابتٌ في طينةِ المَجْدِ، نسبٌ شامخُ الأعناقِ، عَادِيُّ الذُّرى).

وفي عَيْنِ المُرْتَضَى: (فخْرُ الورى، تعرَّفَ في الخَلْقِ بالمكْرُماتِ، أخرسَ بالمَجْدِ قولَ العُداةِ، وضَّاحُ الجبينِ، قرْمٌ، مُجْتمعُ الرَّأي، سادَ العربَ والعجمَ، حصنٌ حصينٌ، ومَعْقِلٌ أشبٌ، أبيٌّ، جريءٌ، وقورٌ، يقظانٌ، تقصَّت أصولُهُ نهاياتَ المعالي، ثاقبُ الزَّنْدِ، مُنْجحُ الوعدِ، صافي الرِّفْدِ، ماضي الشَّبا، فسيحُ الرِّباعِ... يُحيطُ بأقطارِ الأمورِ، ولا يرجو عطاياهُ طامعٌ.. لا يركبُ إلا الصَّعبَ، ويأتي بفصلِ الخطابِ.. ومكارمهُ لا تزالُ غالبةً على محلِّ الفخارِ... إنَّها كما يرى : (الطّويل)

مَعَالِمُ تَسْتَقْصِي الثَّناءَ وَتَنْتَمي إلى شرفٍ فوقَ السَّماكينِ سامِقِ

وأيضاً : (البسيط)

مَعَالِمٌ لا مُرورُ الدَّهْرِ يُخْلِقُهَا ولا يخافُ على مَحْوٍ لها مَاحِ

وفي الطَّريقِ إلى الفَخْرِ بهِ عَثَرْتُ على بعْضِ المَعَاني التي تلاقَتْ عِنْدَهُما، هاكَ هى:

***- عَدَمُ الشَّبيهِ والمثيلِ، فهذا الرَّضِي يقولُ: (المنسرح)**

وأينَ مِثْلُ الحُسين إنْ حَسُنَتْ صَنَائِعُ البيضِ والقَنَا القَصِدِ ؟

ويقولُ المُرْتَضَى: (البسيط)

مَنْ "كالحُسيْن" إذا ما الخيلُ أطْرَبها قَرْعُ الفَوارسِ بالهِنْديَّةِ الخُذُمِ ؟

تَواردُ خَواطرُ الأخوينِ تلاقَتْ في كُلِّ شيءٍ... تلاقَتْ في الوزنِ، وتلاقَتْ في المَعْنى، فأبُوهما يجولُ في الخُصُومِ جولانَ الرِّيحِ في الزَّوايا، ولا يَسْكُنُ من ليلهِ إلى سكنٍ. ولاحظ قولَ الرَّضِي: (وأينَ مِثْلُ الحُسينِ إنْ)، وقولَ المُرْتَضَى: (مَنْ كالحُسينِ إذا)، وكأنِّي بهما قد اتَّفقا على أن يأتي هكذا، فالأوَّلُ أتى بـ (أينَ) أداةَ استفهامٍ، وأتى الثَّاني بـ (مَنْ)، وجاءتا في صَدْرِ البيتِ ؛ لتنبيهِ القارئِ إلى عُلُوِّ شأنِ أبيهما، والرَّضِي أتى بـ (مثل) أداةَ تشبيهٍ، وأتى المُرْتَضَى بـ (الكافِ)، وهى أبلغُ، وجاءَ الرَّضِي بـ (إنْ) أداةَ شرطٍ، وجاءَ أخوهُ بـ (إذا)، وهُما في عيني مُتكافئتانِ. وقريبٌ ممَّا سبقَ قولُ الرَّضِي :

وما وَالِدٌ مِثْلُ ابنِ مُوسى لِمَوْلِدٍ قريبٍ تَجَافَاهُ الرِّجالُ الأباعِدُ (الطّويل)

وقولُ المُرْتَضَى على الوزنِ ذاتهِ :

ولولا ابنُ مُوسى ما اهْتَدَيْنَ لِطيِّهِ ولو وُصِلَتْ أبْصَارُهَا بالبَوارِقِ

ظنِّي أنَّ البيتَ الأخيرَ أجودُ، إذا عرفنا أنَّ الضَّميرَ في (لِطيِّهِ) يعودُ على (اللَّيلِ)، وفي (أبْصَارِهَا) يعودُ على (السَّحائبِ ذواتِ البرْقِ)، وإن كُنْتَ في شكٍّ من هذا أرحْتُكَ بنعْتِ الفاعلِ في قولِ الرَّضي: (تجافاهُ الرِّجالُ الأباعِدُ)، إذ يخْلُو من الدِّقَّةِ التي تصِحُّ إن قالَ: (الرِّجالُ الأماجِدُ).

***- جامِعُ الفَخْرِ، فهذا الرَّضِي يقولُ: (م الوافر)**

إذا ما كُنْتَ لي فَخْرَاً فَمَنْ هذا أُفَاخِرُهْ ؟

ويقولُ أخوهُ: (الطّويل)

مَلانِيَ فَخْرَاً أنَّكَ اليومَ والدي وأنَّكَ طَوْدِي والأنامُ شِعَابُ

أينَ بَيْتُ الرَّضِي من المُرْتَضَى الذي أجدهُ أبدعَ في الفَخْرِ بأبيهِ ؟ تأمّل الفعلَ: (مَلانِيَ)، إذْ كأنِّي بأبي القاسمِ لا يَقْدِرُ على الحَرَكةِ من كثرةِ الافتخارِ بأبيهِ، وإن كُنْتُ أعْتِبُ عليهِ قولَهُ: (أنَّكَ اليومَ)، إذْ ليتهُ قال: (أنَّكَ الدَّهْرَ) ؛ ليكونَ الفخْرُ أجملَ وأكملَ بالنَّظَرِ أيضاً إلى المُقابلةِ في الشَّطْرِ الثَّاني، والإضافةِ في قولهِ: (طَوْدي)، ناهيكَ عن الجَمْعِ في (الأنامِ) الّذي ناسبَ الجَمْعَ في (شعابِ).

وأينَ الرَّضِي مرَّةً أُخْرى منَ أخيهِ حينَ قالَ سنة (٣٧٥هـ): (الكامل)

لَوْ تَعْلَمُ الأفلاكُ أنَّكَ والِدِي لَمْ تَرْضَ أنِّي للسَّماءِ مُصَاهِرُ

وقالَ أخوهُ ، وهى من أوائلِ ما قال : (البسيط)

وكيفَ لا تُلْهِبُ الأفلاكُ هَاجِرَتِي وَمِنْ زِنَادِ ابْنِ مُوسَى يَعْتَلِي ضَرَمِي

المُرْتَضَى يفخرُ بأبيهِ، والرَّضِي يُزَاحِمُهُ. ودَعْ عنكَ هذا لتأمُّل قولَهُ بعْدَ البيتِ السَّابقِ:

وَبحَسْبِ جُودِكَ أنَّني لكَ مَادِحٌ وَبِحَسْبِ مَجْدِي أنَّني بِكَ فَاخِرُ (الكامل)

إذ كأنِّي بهِ يمُنُّ على أبيهِ، وهذا من غرائبهِ !

***- المُجِيْرُ، كأن يقول الرَّضِي سنة (٣٨٦هـ) في تهنئتهِ بردِّ أملاكهِ إليهِ: (الوافر)**

مُجِيْرِي إنْ تَنَاكرَتِ اللَّيالي وَعَوْنِي إنْ تكاثَرَتِ الدَّواعي

ويقولُ المُرْتَضَى في تهنئتهِ أيضاً، ولكنْ بالعيدِ: (الكامل)

أعْلَيْتَ طَرْفي وهو مُنْخَفِضٌ وحَمَيْتَ رَبْعِي وهو مُبْتَذَلُ

لا محالةَ أنَّ المُرْتَضَى يتقدَّمُ على أخيهِ ؛ لوجودِ (إنْ) التي أراها قلَّلتْ من جَوْدةِ المَعْنى، فالوالدُ عونٌ ومُجِيرٌ لولدهِ في وقْتِ الشدَّةِ فقط، هذا ليسَ من تمامِ الفَخْرِ الملحُوظِ في البيتِ الثَّاني، فالمُرْتَضَى شريفٌ ثابتُ الشَّرفِ، عَالِى الذِّكْرِ بفعلِ أبيهِ الّذي هو الظَّهْرُ والسَّنَدُ. ونُلاحظُ أنَّ كليْهِمَا قدَّمَ لنا إيقَاعَاً مُسْتهدفاً لُغةً ومُوسيقى، إذْ عَمَدا إلى صَوْغِ أشْطُرٍ مُتوازيةِ النَّغمِ ، تجسَّدتْ في وحْدةِ الكلماتِ، والحركاتِ التي اهتديا إليها بالسَّليقةِ الشِّعْريَّةِ التي لم تفقِدْ جمالَ الأداءِ، ولا عُذوبةَ الرَّنينِ، (فمجيري) كـ

(وعوني)، و(إنْ) هى هى، و(تناكرتْ) كـ (تكاثرتْ)، و(اللَّيالي) كـ (الدَّواعي) والفعلُ (أعليتَ) كالفعْلِ (وحميتَ)، و (طَرْفي) كـ (ربْعِي)، والواو هى هى، والضَّميرُ هو هو، و(مُنْخفضٌ) كـ (مُبْتذَل).

***- الكريمُ، فهذا الرَّضِي يقولُ: (المُتقارب)**

أسِرَّةُ كفَّيْهِ عُمْرُ الزَّمانِ، جَدَاوِلُ مَاءِ الرَّدَى والكَرَمْ

فإمَّا تفيْضُ بِغَمْرِ النَّوالِ على المُعْتفينَ، وإمَّا بِدَمْ

ويقولُ المُرْتَضَى: (الطّويلُ)

فَتىً لا يُجِمُّ المالَ إلا لِمَغْرَمٍ ولا يستعدُّ الزَّادَ إلا لِطَارقِ

تَجَاوزَ آمالَ العُفَاةِ وأشْرَفَتْ يداهُ على فيضِ الغُيُوثِ الدَّوافِقِ

هذهِ أبياتٌ دقيقةٌ عندَ المُرْتَضَى، جيِّدةٌ عندَ أخيهِ، نلمحُ دقَّتهَا في الاستثناءِ في قولهِ: (إلا لِمَغْرَمٍ، إلا لِطَارقٍ)، وفي الفعلينِ: (تجاوزَ، وأشرفت) بمعنى: زادت، والجَمْع في قولهِ: (آمال العُفَاةِ، والغيوثِ) المنعوتةِ بـ (الدَّوافقِ) ؛ للإيحاءِ بأنَّ نَدَى أبيهِ ينصبُّ انصباباً، ولا يُمْنعُ من التَّحدُّرِ، كأنَّهُ السَّماءُ جدَّتْ في المطرِ، راميةً بأرْوَاقِهَا، وهذا بعينهِ ما ذهبَ إليهِ الرَّضِي ، ولكِنْ في قولهِ عن المُصْطفى (ﷺ): (المُتقارب)

يزيدُ على مُشْتَهى الجُودِ جُوداً ويَبْني على غايةِ المجْدِ مَجْدَا

وفي قولهِ السَّابقِ عن أبيهِ: (تفيضُ بِغَمْرِ النَّوالِ)، فالأفعالُ: (يزيدُ، ويبني، وتفيضُ) تُوحي باستمراريَّةِ فِعْلِ الكرمِ، وتقولُ بأنَّ هذه الذّريَّة

بعضُها من بعضٍ، ذريَّة في كرمِ العِرْقِ كالزَّنْدِ الواري. ونتلمَّسُ إجادتهُ في قولهِ: (عُمْر الزَّمان)، إذ كأنِّي بأبيهِ قد قامَ مُتَعاهِداً، مُتَتَابعاً أمْرَ العُفاةِ أبدَ الدَّهْرِ دونَ وِصَايةٍ من أحدٍ، قامَ عن طِيْبِ خاطرٍ، راضياً مَرْضيَّاً. وأراهُ يتفوَّقُ على المُرْتَضَى في الجَمْعِ لأبيهِ بينَ صِفَتى: (الشَّجاعةِ، والكرمِ)، ولكن أينَ هو من ابنِ الرُّومي تـ (٢٨٣ه) حينَ قال: [١] (الكامل)

خُلِقَتْ يَدَاهُ: [٢] يَدٌ لِتَجْرَحَ في العِدَا ويَدٌ لتأسُوَ جُرْحَ كُلِّ جَرَيْحِ

ومن بشَّارٍ تـ (١٦٧ه) حينَ قالَ في مَدْحِ عُقْبةَ بن سلم [٣]، [٤] (الخفيف)

أرْيَحِيٌّ لهُ يَدٌ تُمْطِرُ النَّيـ ـلَ، وأُخْرى سُمٌّ على الأعْدَاءِ

لا شكَّ أنَّ بيتَ بشَّارٍ أقْوَى ؛ لأنَّ الفعلَ (تُمْطِرُ) أعمقُ من الفِعْلِ (تأسُو)، و (سُمٌّ) أشدُّ تأثيراً على النَّفْسِ من الفعْلِ (تَجْرَحُ)، وزادَ على ذلك

---

١ ـ الـدِّيوانُ تـح د. حسـين نصَّـار ٢/ ٥٣٥ ط٢ ط الهيئـة المصـريّة العامّـة للكتـابِ ١٩٩٣م.

٢ ـ هو الوزيرُ إسماعيلُ بن بلبل، اسْتوزرهُ المُوفَّق لأخيهِ المُعْتمد سنة (٢٦٥هـ)، وكان كريماً، بلغَ من الوزارةِ مَبْلغاً عظيماً، وفي سنة (٢٧٧هـ) عُزِلَ، ثمّ حُبِسَ، ولم يزل يُعذَّبُ بأنواعِ العذابِ حتّى مات سنة (٢٧٨هـ). انظر: مروج الذّهب ٤٩٢/٢٩، الكامل سنة (٢٧٨هـ)، العقد الفريد ١٢٦/٥.

٣ ـ هو عقبة بن سلم الهنَّائي، كنَّاهُ بشَّار بـ (أبي الملدّ)، وظهرَ في خلافةِ أبي جعفرِ المنصور الّذي اسْتَخْلفهُ على البصرةِ، وأقرَّهُ المنصورُ عليها، وفي سنة (١٥١هـ) أمرهُ بالسَّيْرِ لقتالِ أهلِ البحرينِ، فقاتلهُم، وخضَّدَ شوكتهُم، ثمّ عزلهُ، وبقى مُجرَّداً عن العملِ، وتوفى مَطْعوناً في بغداد سنة (١٦٧هـ). انظر: جمهرة أنساب العرب ص ٣٨٠.

٤ـ الدِّيوان جمع وتح وشرح / الطَّاهر بن عاشُور ١٣٢/١ ط١ط دار السَّلام ١٤٢٩هـ= ٢٠٠٨م.

فوصفَ عُقْبةَ بوصفٍ مُعْجبٍ، هو (أرْيَحِيٌّ)، وموضِعُ الإعجابِ في رَوْعةِ مَعْناهُ، فالأريحيُّ: الواسِعُ الخُلُقِ، المُنْبسِطُ إلى المَعْروفِ، فتأمَّل لفظتي: (الواسع، والمُنْبسط) تجدْ حلاوةَ ما وجدت.

ويُعْجبني في بيْتِ ابنِ الرُّومي الفعل (خُلِقَتْ)، إذ يُوحي بأنَّ اللهَ خلقَ يدَ الوزيرِعلى عَيْنيهِ، وسوَّاهَا بمعرفتهِ، وفَطَرَهَا على النَّفْعِ، نَفْعاً تسيرُ فيهِ الخلائقُ طُوْلاً وَعَرْضاً. ولاحِظْ ما سبق ثمّ اقرأ مَعِي بيتَ أبي العَلاءِ تـ (٤٤٩ه) في رثاءِ هذا الطَّاهِرِ الأوْحَدِ: [1] (الكامل)

إنْ زَارَهُ المَوْتى كَسَاهُمْ في البِلَى أكْفَانَ أبْلَجَ مُكْرِمِ الأضْيَافِ

فهو في عَيْنٍ ولديهِ كريمُ الدُّنْيا، وفي عَيْنٍ أبي العلاءِ كريمُ الآخرةِ. ونُلاحِظُ أنَّ الرَّضِي افتخرَ بـ (الكفِّ) من أعْضَاءِ أبيهِ، وافتخرَ أخوهُ بـ (اليدِ)، وهُناكَ أيضاً عندَ الأوَّل:

*- الفَمُ ، كأن يقول من (الميميَّةِ) ذاتها: (المُتقارب)

وَتَنْطِفُ عَنْ فَمِهِ رِيْقَةٌ سُوَيْدَاءُ تَقْتُلُ مِنْ غَيْرِ سُمّْ

*- الشَّفةُ ، إذ يقولُ على الوزنِ ذاتهِ:

لَهُ شَفَتَانِ، فلو كانتا لِسَاناً لما بَانَ عَنْهُ الكَلِمْ

وعندَ الثَّاني:

١ - شُروح سِقْط الزَّنْدِ تح/ مصطفى السقّا وآخرين، إشراف د. طه حُسين ١٢٦٤/٣ ط الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ١٤٠٨هـ= ١٩٨٧م.

***- اللِّسانُ، كأن يقول من (ميميَّةٍ) أيضاً: (الكامل)**

وتراهُ عُرْيانَ اللِّسانِ من الخَنَا لا يَهْتَدِي للأمرِ فيهِ ملامُهُ

***- القَدَمُ ، كقولهِ في تهنئتهِ على الوزنِ ذاتهِ :**

في كُلِّ عارفةٍ لهُ قَدَمٌ ولكُلِّ مَكْرُمةٍ بهِ مَثَلُ

كُلُّ شيءٍ في أبي الحُسينِ يبْعَثُ على الفَخْرِ، حتّى الرِّيقةُ تَقْتُلُ بغيرِ عَنَاءٍ، فأينَ المُرْتَضَى من هذا ؟ وفي تصغيرها دلالةٌ على كونها تافهةٌ، ولكنَّها وحشيَّةٌ (تقتلُ من غيرِ سُمّ)، ولا أدْرِي لماذا نعتها هكذا ؟ إذ الأولى أن تكونَ كاللُّؤْلُؤ الصَّافي، تملأُ عينَ النَّاظِرِ. وَقِفْ أمامَ بيتهِ الثّاني البعيدِ عن الدقَّةِ ؛ لقولهِ: (لما بانَ عنْهُ الكَلِمْ)، فالدقَّةُ أن يكونَ كلسانِ الأرقمِ، لا يُطاقُ لهُ، ولا يُقامُ بهِ. ووجدتُّهما يَنْعتَاهُ بِحِزْمَةٍ من النُّعوتِ المُتعارفِ عليها عندَ جُلِّ الشُّعراءِ هى:

(أ)- البَدْرُ، فهذا الرَّضِي يقولُ سنة (٣٧٦م): (الخفيف)

نَظَرَ العِيْدُ مِنْكَ بَدْراً تخفَّى بُرْهةً عَنْ نَوَاظِرِ الأعْيَادِ

ويقولُ: (الطّويل)

وَقَدْ حَفَّ بالبَدْرِ النُّجُومُ كأنَّهُ هَدِيٌّ تَهَادَاهُ الإماءُ الولائِدُ [1]

ويقولُ المُرْتَضَى: (الكامل)

كالبَدْرِ يَكْسُو اللَّيلَ أثوابَ الضُّحى والفَجْرُ شُبَّ على الظَّلامِ ضِرَامُهُ

---

١ - الْهَدِيُّ: العَرُوسُ. وأرادَ بقولهِ (تهاداهُ) : تسوقهُ. انظر: اللِّسان ، مادة (هدى).

بيتُ الرَّضِي الأوَّلُ دونَ الثَّاني، إذ أرى الفعلَ (تخفَّى) قد أزْرَى بالمعنى، وأحسبهُ أدْرَكَ هذا، فأتى بقولهِ: (بُرْهةً) ؛ كى لا يفقدَ البيتُ كُلَّ مزاياهُ. وعلى ما في بيتهِ الثَّاني من جمالٍ ملحوظٍ في الفعلِ (حفَّ) ـ المؤكَّد بـ (الواوِ، وقد)ـ، والجَمْعِ في (النُّجوم) إلا أنِّي أُفضِّلُ عليهِ بيتَ المُرْتَضَى ؛ لأنَّ (المُشبَّهَ بهِ) عندَ الرَّضِي ليسَ بهِ حَرَاكٌ، أمَّا هو عندَ أخيهِ فنشيطٌ، طيِّبُ النَّفْسِ للعملِ، نلمحُ هذا في الفعلِ: (يكْسُو)، ويكسُو ماذا ؟ إنَّها أثوابٌ تُبْهِرُ، وليسَ ثوباً يضيقُ عن حدِّ اللَّيلِ. وفي اعتقادنا أنَّ المَعْنى في البيتِ الثّاني قريبٌ من قولِ "ابن الرُّومي" تـ (٢٨٣ه): (البسيط) [١]

كأنَّهُ بينَ أحوالٍ تَدَاولهُ بَدْرٌ تَهَادَاهُ شَتَّى من مَغَازلهِ

المَعْنى وروحُ الشِّعْرِ في هذا البيتِ ؛ لاستيفائهِ كُلَّ أركانِ التَّشْبيهِ، واستخدامِ (كأنَّ) دونَ غيرها، وهى أقْوَى في الدِّلالةِ على المَعْنى المُرادِ. وجاءَ بها في صَدْرِ البيتِ ؛ ليُزِيدَ من قُوَّةِ المُشبَّه، وزادَ على ذلك فجعلهُ حديثَ المُشبَّه به الّذي لا يُرى على المَدَى سِواهُ، والجمْعُ في قولهِ: (بينَ أحوالٍ) من الدِّقَّةِ بمكانٍ ؛ للإيحاءِ بأنَّ حُسْنَ المَمْدُوحِ ثابتٌ في كُلِّ الأحوالِ دونَ أنْ يتأثَّرَ بأيِّ مُؤثِّرٍ. ونَعَتَ الرَّضِي عليَّاً –ﷺ- بمثْلِ هذا في قولهِ: (الوافر)

أهَذا البَدْرُ يُكْسَفُ بالدَّياجي ؟ وَهَذِي الشَّمْسُ تُطْمَسُ بالضَّبابِ ؟

أحسبُ أنَّ هذا غايةُ ما يأتي في صياغةِ المَعَاني، وإبداعها، ناهيكَ عن هذا التَّحسُّسِ النَّفْسِي لمواقعِ الألفاظِ التي لا تُولَدُ إلا من قريحةِ هذا

---

١ ـ الدِّيوانُ ١٩٩١/٥ .

الشَّاعرِ البكَّاءِ، فتأمّل مهارةَ التَّرقِّي في التَّشْبيهِ، فعليٌّ – قسيمُ النَّارِ- بَدْرٌ، والمُصْطفى – (ﷺ) شمسٌ. وممَّا لا شكَّ فيهِ أنَّ توازي الألفاظِ داخلَ البيتِ يكشفُ معطياتٍ فنّيَّةً دالَّةً على براعتهِ في القبضِ على إمكاناتِ اللُّغةِ، وما يَسْتتبعُهَا من التَّكْثيفِ المُوسيقي، إذ كلُّ كلمةٍ في الشَّطْرينِ تُوازي الأُخْرى بشكلٍ ينمُّ عن القَصْدِ ؛ تحقيقاً وتأكيداً على قُدْرتهِ الفنّيَّةِ، تأمّل: (أهذا، وهَذِي)، (البدْرُ، الشَّمْسُ)، (يُكْسفُ، تُطْمسُ)، (بالدَّياجي، بالضَّبابِ)، وكأنِّي بلسانِ حالهِ يقولُ إذا كانَ عليٌّ يقعُ على حافرِ المُصْطفى (ﷺ) فكذلكَ مُوسيقى أشْعَاري. ودلَّنا الاستفهامُ على حالةٍ مُتْعبةٍ.. حالةٍ يَغْمُرها أسىً فاجعٌ على هذينِ الفرقدينِ.

(ب)- اللَّيثُ:-

هذا النَّعْتُ عندَ الرَّضِي من الكثرةِ بمكانٍ، وعِلَّةُ ذلكَ فيما أرى أنَّ قصائدَ المُرْتَضَى دونَ قصائدَ أخيهِ في أبيهما، فها هو ذا يقولُ: (الطّويل)

أقولُ لِدَهْرٍ تَاهَ إذْ صِيْدَ لَيْثُهُ: كَذاكَ يُصادُ اللَّيْثُ واللَّيْثُ رَاقِدُ

ويقولُ في تهنئتهِ بعيدِ الفطرِ سنة (٣٧٩ه): (الكامل)

ضِرْغامِ هَيْجَاءٍ كَفَاهُ بأنَّهُ عِنْدَ القَوَاضِبِ والقَنَا بي مُشْبِلُ

ويقولُ في المناسبةِ ذاتها سنة (٣٨١ه): (الطَّويل)

حَذَارِكَ مِنْ لِيثٍ تَرَى حَوْلَ غِيْلِهِ سَوَاقِطَ أيْدٍ للرِّجالِ ، وَهَامِ

وها هو ذا المُرْتَضَى يقولُ من القصيدةِ السَّابقةِ: (الكامل)

وكأنَّما أُجَمُ العَوالي غِيْلُهُ وكأنَّما هُو بينها ضِرْغَامُهُ

المُرْتَضَى يَخْلُو من أيِّ جَمَالٍ، إذْ أراهُ كقولِ البُحْتريِّ تـ (٥٢٨٤ه) سنة (٥٢٦٩ه):

بَذَلَ القومُ رَهْنَهُمْ خَوْفَ لِيثٍ أثَّرتْ في عُداتهِ أظْفَارُهْ [١] (الخفيف)

الفعلُ (أثَّرتْ) أضعفَ شَوْكةَ المُشبَّهِ بهِ، والأولى أن يقولَ مثلاً: (أنْهَسَتْ) ؛ لأنَّ هذا جُرْحُهُ أغْوَرُ، وإيحاءهُ أشدُّ، كما أنَّهُ يُناسِبُ قولهُ: (بذلَ القومُ رَهْنَهُمْ)، فالفعلُ يُوحي بأنَّ القومَ قد بذلوا كُلَّ ما يَرْضَى بهِ الممدوحُ بالغاً ما بلغَ ؛ ليكونَ لهُمْ سَبَقَاً. ومن القُبْحِ بمكانٍ قولُهُ أيضاً سنة (٥٢٦٨ه): [٢] (البسيط)

..... كاللَّيْثِ تَخْلِجُهُ في الجوِّ ريحانِ

فالشَّطْرُ الثَّاني مُعوَّجٌ ؛ لأنَّهُ لا مَعْنى لمجاذبةِ الرِّيحانِ – مُثنَّى ريح- للَّيْثِ وهو في الجوِّ.

والرَّضِي في البيتِ الثَّاني يَفْخَرُ بنفْسِهِ لا بأبيهِ، وهذه ليست المرَّةَ الأولى، بل هى مرَّةٌ من ألفِ مرَّةٍ كما سيأتي، وأينَ بيتُهُ الأوَّلُ من الثَّالثِ ؟ فاللَّيثُ في الأوَّلِ أسِيْرُ شَرَكِهِ، وفي الثَّالثِ حُرٌّ طليقٌ، لهُ ألفُ عَدْوةٍ وعَدْوةٍ تَحْطِمُ القَنَا، وتُجْلي الأقْتالَ. ولاحظ دِقَّةَ قولهِ: (سَواقِطَ أيدٍ للرِّجالِ وهام)، فأبُوهُ يَقَعُ على الخُصُومِ والأعْدَاءِ وقوعَ الطَّائرِ على وَكْرِهِ، راكباً أعْنَاقَ الرِّياحِ. وفي قولهِ: (كَذَاكَ يُصادُ اللَّيثُ.....) إشارةٌ إلى فِعْلِ عَضُدِ الدَّولةِ بن بويهٍ بأبيهِ حينَ قَبَضَ عليهِ، وحُمِلَ إلى فارس فحُبِسَ في القلعةِ مع ابن

١ ـ الدِّيوانُ تح / حسن كامل الصِّيرفي ٢/٩٠٦ ط٣ ط دار المعارف ١٩٧٧م.
٢ ـ السَّابقُ ٤/٢١٧١.

عمر العلوي، وابن معروف (قاضي القُضاة). وتأمّل قولَهُ: (أقولُ لدهْرٍ تَاهَ....)، فالدَّهْرُ صارَ يَلْهُو... يَمْرَحُ، لا يردُّهُ شيءٌ عن فرحتهِ لحبسِ أبي الحُسينِ الّذي جَعَلَ الدَّهْرَ يعيشُ عِيْشةَ النَّكَدِ.

ووقَعَتْ عَيْنِي على ظَاهِرَةٍ في فَخْرِ الرَّضِي بأبيهِ، هى (الجَمْعُ) أحياناً بينهُما في الفَخْرِ، كأن يقول سنة (٣٨١ه): (الطّويل)

كِلانَا لَهُ السَّبْقُ المُبِرُّ إلى العُلَى وإنْ كانَ في نَيْلِ العَلاءِ إمَامي

وَمَا بَيْنَنَا يَوْمَ الجزَاءِ تَفَاوتٌ سِوَى أنَّهُ خَاضَ الطَّرِيقَ أمَامي

ويقولُ: (الوافر)

وإنِّي إنْ لَحِقْتُ أبي جلالاً فهذي النَّارُ منْ ذاكَ الذُّبَالِ

في هذهِ الأبيات خرجَ الرَّضِي من دائرةِ الفَخْرِ المُطْلقِ بأبيهِ إلى دائرةٍ رأى نَفْسَهَ فيها قِرْناً لهُ وَنِدّاً، بل إلى دائرةِ من يرغبُ في مُنافستهِ، والسَّبْقِ عليهِ، أرأيتَ قولهُ : (الطَّويل)

وَلَولا مُرَاعاةُ الأُبُوَّةِ جُزْتُهُ وَلَكِنْ لِغَيرِ العَجْزِ ما أتَوَقَّفُ

ولم أعْثُرْ على مثْلِ ذلكَ في شِعْرِ المُرْتَضَى، وعِلَّةُ ذلكَ عِنْدي أنَّ الرَّضِي تمشَّتْ فيهِ حُميَّا العُلا، فرأى نَفْسَهُ أحقّ بالخلافةِ والإمارةِ من بعْضِ الخُلفاءِ والأُمراءِ كمذهبِ أُسْتاذِهِ أبي الطَّيِّبِ. ولكن إن جازت هذهِ النَّعْرةُ مع الخُلفاءِ والأُمراءِ أتجوزُ مع أبيهِ ؟ لا.. لا تجوزُ، بدليلِ قوله: (ولولا مُراعاةُ الأُبوَّةِ جُزْتُهُ)، إذ أفهمُ منهُ أنَّ الأُبوَّةَ أوقفتهُ عن طلبِ العُلا ؛ خوفاً على

مشاعرِ أبيهِ...أوقفتهُ بِرَّاً وليس عَجْزاً بدليلِ قولهِ: (ولكن لغيرِ العَجْزِ ما أتوقَّفُ)، وقولهِ على الوزنِ ذاتهِ:

جَرَى ما جَرَى قَبْلي وهَا أنا خَلْفَهُ إلى الأمدِ الأقْصَى أُغِذُّ وأُوجِفُ

ولكن مَهْلاً..فكم كنتُ أودُّ أن يكونَ كأخيهِ حينَ قالَ لخالهِ تـ (٣٩١هـ) :

"واقِفٌ" عندهُ جَوادُ سِباقي وإلى هذهِ المَعَالي سِباقي (الخفيف)

جوادُ عُلا المُرْتضى أوقفهُ خالهُ، وجوادُ عُلا الرَّضي أوقفهُ أبوهُ، وجدُّهُ، تأمّل:

قطعْتُ مفازَةَ هذا الرَّجاءِ ولكنَّ جَدِّي بعيدُ المُرامِ (المُتقارب)

إنَّهما أخوانِ يَحْملانِ نَفْساً شريفةً تتطلَّعُ إلى المَعَالي ولكن في أدبٍ، وتحرُّجٍ.... تتطلَّعُ إلى المَعَالي لغايةٍ نبيلةٍ تبوحُ لنا بأسرارها في قولِ الرَّضي : (الطّويل)

وَقَدْ كُنْتُ أبْغِي رُتْبةً بَعْدَ رُتْبةٍ، فآنفُ لي مِنْ أنْ أفوزَ بهَا وَحْدِي

حِفَاظاً على القُرْبَى الرّؤومِ، وَغَيْرةً على الحَسَبِ الدَّاني، وبُقْيا على المجْدِ

(٢)- الفَخْرَ بالأُمِّ:-

البحْثُ في شِعْرِ الفخْرِ بـأُمِّ [١] الشَّريفينِ يُفْضِي إلى ظُلْمٍ بيِّنٍ لا محالةَ حين يُوزنُ بفخْرِ (الأبِّ) ؛ لا سيَّما عند المُرْتَضَى الذي لم يذكُرْ أُمَّهُ قطّ حتّى في بابِ (الرِّثاءِ)، وأحسبُ أنَّ هذا من العُقُوقِ الشِّعْري، إذ لا أدْرِي كيف يَرْثي المُرْتَضَى أُمَّهاتِ الأُمراءِ، والوزراء.....، دون أنْ يكونَ لأُمِّهِ

١ ـ هى فاطمةُ بنتُ الحسين بن أحمد بن الحسن الناصر الأصمّ ، وقد توفّت سنة (٣٨٥هـ).

نصيبٌ مع عُمْرِهِ المديدِ ؟ أمَّا الرَّضِي فقد رثاها بهمزيَّةٍ من عُيُونِ الشِّعْرِ، تكشَّفت لي عن ألمٍ دفينٍ، وحُبٍّ مكينٍ، ونكبةٍ عظيمةٍ ؛ لأنَّهُ فَقَدَ أُمَّاً صوَّامةً قوَّامةً، عفيفةً زاهدةً، برَّةً نجيبةً، إذ يقولُ:

شَهِدَ الخلائِقُ أنَّها لنجيبةٌ بدليلِ مَنْ وَلَدَتْ من النُّجباءِ (الكامل)

وفيما أعلمُ فهذا النَّعْتُ مُحبَّبٌ لدى الشُّعراءِ عندَ الحديثِ عنِ (الأُمِّ)، فها هو ذا يأتي بهِ دونَ غيرهِ في مقامِ (المدْحِ) بأبيهِ سنة (٣٧٧ه): إذ قال: (الطّويل)

ألا إنَّ فَحْلاً ساعدتْهُ نجيبةٌ فجاءَ بنجْلٍ كالحُسينِ لَمُنْجِبُ

ومن الشُّعراءِ مَنْ أتى بهِ في بابِ (الرّثاءِ)، كقولِ "ابنِ خفاجة" تـ (٥٣٣ه) في أُمِّ الفقيهِ القاضي (أبي أُميّة) إبراهيم بن عصام: [١] من همزيَّةٍ كهمزيَّةِ الرَّضي، ووزنٍ كوزنهِ: [٢]

بنجيبةٍ جاءتْ بأوْحَدَ أمْجَدٍ قد فاتَ طَوْلاً أيدىَ النُّجباءِ

في اعتقادنا أنَّ البيتَ الأوّلَ أجودُ ؛ لأنَّ الفعلَ (شَهِدَ) مكَّنَ المعْنى في نفسِ القارئ، وأعطاهُ جمالاً وحُسْناً يُضافُ إلى دِقَّةِ قولهِ: (الخلائق)، فهى أمٌّ دونها كلُّ أُمٍّ، لا بدليلِ من أنجبَتْ فحسب، وإنَّما بشهادةِ كُلِّ (الخلائقِ). وأين ابنُ خفاجة مرَّةً أُخْرى من الرَّضي حين قال في رثاءِ جَدِّهِ يومَ عاشُوراءَ سنة (٣٧٧ه): ؟ (الطّويل)

---

١ ـ قاضي القضاة بمرسية، فقيهٌ، أديبٌ، شاعرٌ، من أهلِ بيتِ جلالةٍ ووزارةٍ، وتوفى سنة (٥١٦هـ). انظر: المغرب ٢/ ٢٥٨، بغية المُلْتمس ٢٢٢، قلائد العقيان ٢٣٢.

٢ـ الدِّيوان تح د. سيّد غازي ص ٢٧٣ ط ٢ ط منشأة دار المعارف بالإسكندريّة ١٩٧٩م.

إنْ يَظْفَرِ المَوْتُ مِنَّا بابنِ مُنْجبةٍ فَطَالما عادَ ريَّانَ الأظافيرِ

فاطمةُ بنتُ النَّبي (مُنْجبةٌ)، أىْ وَلَدَتْ النُّجباءَ الّذينَ خرجوا خُروجَ أبيهم في الفضلِ والكرمِ، وأُمُّ الفقيه جاءتْ بواحدٍ فقط، تأمَّل: (بأوحد أمجدٍ)، وقولُ ابن خفاجة: (قد فات طَوْلاً....) يُوحي بكرمهِ، وقولُ الرَّضي: (فطالما عاد ريَّانَ....) يقولُ بشجاعةِ الحسين الذي طالما عادَ أحمرَ الأظافرِ من دماءِ قتلاه. هذا كلُّ ما وجدتُّ في الفَخْرِ بـ (الأمِّ) عندهما، ولا أحسبُ أن قِلَّةَ الفَخْرِ بها تعودُ لِحُبٍّ زائدٍ لأبيهما دونها، وإنَّما تعودُ للحجابِ المضروبِ على حياةِ نساءِ الأشرافِ، فهذا الرَّضِي يقولُ في مناسبةٍ اقتضت ذلك: "إنَّنا أهْلُ بيتٍ لا يطَّلِعُ على أحوالنا قابلةٌ غريبةٌ، وإنَّما عجائزُنا يتولَّيْنَ هذا الأمرَ مِنْ نسائنا". [1] وما بينَ القِلَّةِ والكثرةِ أعمالٌ مجيدةٌ، ومناصبٌ جليلةٌ شَغَلَها الأبُّ، أعمالٌ ملأتْ الأسماعَ والأبصارَ لم تحظ بها الأمُّ، ومَنْ أحسنُ من الشَّريفينِ بالتغنِّي بها، فافتخرا بأبيهما بينَ الخُلفاءِ العبَّاسيِّينَ، والمُلوكِ البويهيِّينَ حتّى لم يترُكَا قولاً لقائلٍ.

(٣)- الفَخْرَ بالأخِ:-

فَخْرُ الأخوينِ ببعضهما من القِلَّةِ بمكانٍ، وهذا عينُ العجبِ؛ لأنَّهُما شاعرانِ يَقْبضانِ على أدواتِ الشَّاعريَّةِ الحقَّةِ.. يَنْحَدِرانِ إلى شَجْرةٍ ميمونةٍ مُباركةٍ، فإذا لم يفتخرا ببعضٍ، ويملأ الدُّنيا عُلاً وعَلاءً فمن يكونُ ؟ وهو فخْرٌ أوجدتهُ المناسبةُ، وآيةُ ذلك أنَّهُ جاءَ عندَ الرَّضِي في مقامِ (التَّهاني) كقولهِ يُهنِّئُ أخاهُ بمولودٍ سنة (٣٧٤هـ): (الطّويل)

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ١/ ١٣.

أبا قاسمٍ ! حلَّاكَ بالشِّعْرِ ماجِدٌ عليكَ لهُ حتّى الممات رَصَائِعُ

أخٌ لا يَرَى الأيَّامَ أهْلاً لِمَدْحِهِ ولو ضَمِنَتْ أنْ لا تراهُ الفَجَائِعُ

شُجاعٌ لأعناقِ النَّوائبِ راكِبٌ هُمامٌ لأطْوادِ الحوادثِ قَارِعُ

وجاءَ عندَ المُرْتَضَى في مقامِ (الرِّثاءِ) بأخيهِ حين قال: (الكامل)

ذاكَ الذي جَمَعَ الفَخَارَ فخارُهُ سَبْقاً إليهِ من جميعِ النَّاسِ

مُمْعِنُ النَّظرِ في أبياتِ الرَّضي يُلاحظُ أنّه افتخرَ بنفسهِ، وبأشعارهِ في مقامِ الفخْرِ بأخيهِ الأكبرِ، تماماً كما فعلَ مع أبيهِ حين قالَ آنفاً: (الطّويل)

كلانا لهُ السَّبْقُ المُبِرُّ إلى العُلى وإنْ كانَ في نَيْلِ العَلاءِ إمامي

وتلك شَنْشنةٌ عرفْتُها عنهُ، وظاهرةٌ مُكْتسبةٌ من أستاذهِ كما قُلنا. أمَّا المُرْتضى فلم يكُنْ كأخيهِ، إذ افتخرَ بهِ فقط على الرَّغْمِ من وجودهِ في حَضْرةِ فَخْرِ الدَّولةِ، وهذا غايةُ إعْجَابِي، إعْجَابٌ يتضاعَفُ إذا علمنا أنَّ الأخيرَ من قامَ على الدَّفْنِ.

وغيرُ خافٍ علينا أنَّ فخْرَ الرَّضي بالمُرْتضى دارَ حولَ نَعْتهِ بـ (الشَّجاعةِ) فقط، وأينَ هذا من الأخيرِ الذي جَمَعَ لأخيهِ كلَّ أنواعِ المفاخرِ؟ تأمّل الفعلَ: (جَمَعَ)، وقوله: (من جميعِ النَّاسِ)، إذ يُوحيانِ بأنَّ الرَّضي رجلُ الحربِ، والفضائلِ التي صارت بعد موتهِ كشنَّةٍ منبُوذةٍ ، أوْ حِلْسٍ من الأحْلاسِ. ولعلَّكَ لاحظْتَ أدبَ الرَّضي في خطابِ أخيهِ حين قال: (أبا قاسمٍ)، وقال: (أخٌ). ولم يكُنْ المُرْتضى بعيداً عنه حين قال على الوزنِ ذاتهِ :

أبا حَسَنٍ لا غاضَ ما فاضَ بيننا من الصَّفْوِ ما تَصْبُو إلى الماءِ حُوَّمُ

وقال: (الكامل)

إنَّ الفضائلَ بعْدَ فَقْدِ "مُحمَّدٍ" دَرَسَتْ معالِمُهَا مع الأدْرَاسِ

إنَّها التّربيةُ في بيْتِ العُلا، تربيةٌ أخَذَتْ بأطرافِ الفخَارِ، و

مَغَارِسُ طالتْ في رُبَى المَجْدِ،والتقَتْ على أنبياءِ اللهِ،والخُلفاءِ (الطّويل)

وأحسبُ أنَّ فَخْرَ الرَّضي بأخيهِ حين قالَ: (شُجاعٌ لأعناقِ النّوائبِ.....) دونَ فَخْرِهِ بأبيهِ حين يقولُ على الوزنِ ذاتهِ:

أبا أحْمَدٍ ! أنتَ الشُّجاعُ، وإنَّما تَجُرُّ العَوَالي عرْضَةً لِطِعَانِ

إذ أين قولهُ: (شُجاعٌ) من قولهِ: (أنتَ الشُّجاعُ) ؟ وكأنِّي بأبيهِ فوقَ كلِّ الرِّجالِ شِدَّةَ بأسٍ، وقُوَّةَ قلبٍ.

(٤)- الفَخْرَ بالأبناءِ:-

لا نرتابُ في أنَّ الفخْرَ بهذينِ الأخوينِ يجرُّنا إلى الفَخْرِ بأبنائهما، هؤلاءِ الأبناءِ الذين نبتوا في دَوْحةِ العلياءِ، دَوْحةِ عِزٍّ فرعُها مُتعطِّفٌ، وكان الفَخْرُ بهم من حظِّ الرَّضي الذي ذهبَ يُهنِّئُ أخاهُ، ويفتخرُ بما أنجبهُ من بنينَ وبنات. وقد لاحظتُ أنَّ فَخْرَهُ بالبناتِ أغلبُ، وأجودُ، وعِلَّةُ ذلك فيما قرأتُ أنَّهُنَّ وُلِدْنَ قبلَ البنينِ، فأفرغَ فرحتهُ فيهنَّ، تقولُ بذلك قصائدُهُ، إذ أين قولهُ: (الطّويل)

وَمُبْتَسِمٌ ، يرتجُّ في ماءِ حُسْنهِ لهُ مِنْ عُيُونِ النَّاظِرِينَ فواقِعُ

من قولهِ: (البسيط)

مولودةٌ نَهَبَ الرَّاؤونَ بَهْجتها لَثْماً، وعانقْتَهَا في ثوبِ مَحْسُودِ

كانت شِهَاباً كَسَا ظلماءَهُ وَضَحَاً والليلُ يَدْخُلُ في أثوابهِ السُّودِ

جاءت بها ليلةٌ تَثْني سَوَالفها في صَدْرِ يومٍ رَشيقِ القَدِّ أُمْلُودِ

للهِ شَمْسُ عُلىً جاءت بجوهرةٍ غرَّاءَ عن قَمَرٍ بالمجْدِ مَسْعُودِ

وقولهِ على الوزنِ ذاتهِ:

شريفةٌ رَشَّحَتْ منها مَنَاسِبُها لِحِلْيةِ العِزِّ مَجْرى اللَّيْثِ والجيدِ

وقولهِ: (المُتقارب)

أغارَتْ على الحُسْنِ أسْبَابُها فأسْبَابُهُ عندها في إسَارِ ؟

المولودُ مُبْتَسِمٌ...، والمولودةٌ شريفةٌ، جوهرةٌ، شِهَابٌ، غِرَّةٌ، طوَّق المجدُ أعناقها، ولها باعُ عِزٍّ ممدودٍ على الأيَّامِ . لا شكَّ أنَّ الفخرَ بها أرحب.

وعُدْ إلى الفعلِ (يرتجُّ)، إذ أراهُ دونَ الفعلينِ: (أغارتْ، ونَهَبَ)، إذ يُوحيان بأنَّ حسنَ المولودةِ نهبتهُ القُبَلُ...حُسْناً دَعَا اللَّيلَ إلى الغُنْجِ والدَّلالِ، وأطْرَفَ عينَ الشَّمْسِ عن الإشراقِ. وكم كان الرَّضي رائعاً حين جعلَ حُسْنها مُسْتمدَّاً من حُسْنِ الآباءِ والأجدادِ حين قال: (عن قَمَرٍ بالمجْدِ مسْعُودِ)، ولكنَّهُ كانَ دونَ ذلكَ في قولهِ: (كانتْ شِهَاباً.....)، إذ الأولى أن يقول: (جَاءتْ)، ومعهُ عُذْرهُ ؛ لأنَّهُ أتى بهِ في صَدْرِ البيتِ التَّالي للبيتِ السَّابقِ.

وتأمّل جمالَ قولهِ: (فواقِعُ)، إذ الفاقِعُ الخالِصُ الصَّافي من الألوانِ، وأجملُ منهُ قوله: (واللَّيلُ يدْخُلُ في أثوابهِ السُّودِ، ليلةٌ تَثْني سوالفها، يومٍ رشيقِ القدِّ أُمْلُودِ)، إنَّها صُوَرٌ جيِّدةٌ، مُتْقنةٌ، تقفُ نَفْسي أمامَ جمالها حائرةً ؛ لإيحائها المُذْهلِ بالحركةِ المُتَّصلةِ الملحُوظةِ في الفعلينِ: (يدخلُ، وتثني). ولا شكَّ أنَّ الصُّورةَ الأخيرةَ أجودُ، والنَّعْتُ بـ (الأملودِ) أعطاها مزيداً من العُمْقِ والإجادةِ.

ولم يكُنْ فَخْرُهُ بأبناءِ خالهِ دونَ فَخْرهِ بأبناءِ أخيهِ، بيدَ أنَّني وجدتُّ الفخْرَ بالولدِ يَسْبقُ الفخْرَ بالبنتِ، بخلافِ ما سبق، كذلك وجدتُّهُ عَقْلانيَّاً، منطقيَّاً، نابهاً، فالبنتُ لها ما ليس للولدِ، لها الحسنُ والجمالُ، لها الغُنْجُ والدَّلالُ، والذَّكرُ هو المُرشَّحُ للمَعَالي، للبيضِ القواضبِ واللِّدانِ... ننظرهُ ربيباً للصَّوارمِ، تِرْباً للمفاوزِ، طَلِيقَ الكفِّ، جَرِيَّ الرُّمْحِ، ربيطَ الجأشِ إن اتَّسعت سِنوهُ ، نراهُ عزيزَ الجارِ: (الوافر)

يَنالُ المجْدَ مِنْ عُنقِ المذَاكي ويَجْنِي العِزَّ مِنْ طرفِ السِّنانِ

يُرَبَّى بينَ أحْشَاءِ المعَالي ويُودَعُ بينَ أجْفَانِ الأماني

فأينَ ولدُ المُرْتضى من هذا ؟

ووجدتُّ جمالَ الفخْرِ بالبنتِ هُنا كجمالهِ بها هُناك، فهى: (البسيط)

مولودةٍ سَقَطَتْ عنْ حجرِ والدةٍ جاءتْ بها مِلْء حِجْرِ المجدِ والحسبِ

باشِرْ بطلْعَتها العلياءَ مُقْتبلاً فإنَّها دُرَّةٌ في حِلْيةِ النَّسبِ

واسْعَدْ بها واشْكُرِ الأقدارَ أنْ حَمَلتْ إليكَ قُرَّةَ عيْنِ العُجْمِ والعَرَبِ

في الفَخْرِ بالولدِ أتت الأفعالُ مُضارعةً: (ينالُ، يَجْني، يُربَّى، يُودِعُ)، وهُنا أتتْ أمراً، وهذا في تَقْديري من دِقَّةِ الشَّاعرِ، وقوَّةِ مُلاحظتِه، ومعرفتِه بمخابئ الشِّعْرِ، فللولدِ دورٌ ينتظرهُ.. دورٌ إيجابيٌّ ، ينعكسُ عليهِ وعلى أهلِه، ومن ثمّ جاءَتْ هذهِ الأفعالُ، أمَّا دورُ البنْتِ فانعَكَسَ على أبيها فقط، لهذا قال: (باشِرْ، اسْعَدْ، اشْكُرْ).

ومُجْمَلُ الفَخْرِ بالأبناءِ قالَ إنَّ الفخْرَ بأبناءِ الخالِ أجودُ، ومن ثَمَّ نسألُ: هل أحبَّ الرَّضي أبناءَ خالِه أكثرَ من أبناءِ أخيهِ ؟ لا أحسبُ هذا.. والّذي في يَقْيني أنَّ هذا جاءَ عن غيرِ قصْدٍ، جاء – غالباً- خُضُوعاً للحالةِ النَّفْسيَّةِ لهُ آنئذٍ، وربّما كان للمناسبةِ، والظُّروفِ المُحيطةِ بها، بالإضافةِ إلى عواملِ الزَّمانِ والمكانِ التي لها دورٌ في ذلك، أيَّدَ هذا أنَّ الرَّضي لم يُعزِّ خالَهُ عن بنتٍ تخطَّفها الموتُ، وعزَّاهُ المرتضى بـ (فائيَّةٍ) دلَّتْ على أساهُ، لكنَّها خلتْ من ملامحِ من كانت هدفاً لحنيَّاتِ الرَّدى. هذه واحدةٌ، والثّانيةُ أنَّهما لم يُقدِّما لخالهما الفخْرَ اللائقَ بهِ، فوقفَ الرَّضي عند قولهِ:

مُتيَّمٌ بالعُلى، والمجْدُ يألَفُهُ ..... (البسيط)

ولم يأت المُرْتضى بشيءٍ من هذا، فهل نقولُ إنّهما لم يُحبَّاه ؟ كلا وألف كلا، إنّها عمليَّةٌ نفسيَّةٌ تخضعُ للظروفِ كما قُلتُ، ولنا في (الحسنِ والحُسينِ) خيرُ دليلٍ، إذْ بحثْتُ في شِعْرِ الأخوينِ عن فخْرٍ بهما فلم أجِدْ إلا أبياتاً طافحةً بالدَّمِ على (الحُسينِ) الّذي سُقِيَ الموتَ صِرْفاً، سَقَاهُ آلُ أُميَّةَ، وسَقُوا آلَ ياسينَ.. سَقَوْا مَنْ أبياتُهم مهابِطُ الأملاكِ، ومَنْ ديارُهم دِيارُ الصُّوَّمِ القُوَّمِ، اسْمَعْ أنينَ المُرْتضى على من كانوا جبالَ المجْدِ عِزًّا وعُلاً، نُوراً وسناً: (الطّويل)

لنا منْكُمُ في كُلِّ يومٍ وليلةٍ قتيلٌ صريعٌ أوْ شَريدٌ مُخوَّفُ

والثَّالثةُ أنَّ المُرْتضى لم يفخَرْ بأبناءِ أخيهِ، ولا بأبناءِ خالهِ، فهل لم يُحبَّهُمْ، أو يفْرَحْ بهم ؟ لا.... والّذي أُجْزِمُ بهِ أنّه كانَ ينفرُ من هذهِ المُناسباتِ، يُؤيِّدُ هذا أنَّ ما جاءَ فيها من قصائدَ من الضَّعْفِ بمكانٍ، وهاكَ ديوانُهُ شاهِدٌ على ما أقول.

(٥)- الفخْرَ بالأصُولِ والفُروعِ:-

أُرِيدُ بالأصُولِ والفُروعِ كلَّ آلِ النَّبيِّ دونَ تخصيصٍ، إذ وجدتُّهما يفْتَخِرانِ بكُلِّ هؤلاءِ فَخْراً صَحِيْحَاً موفوراً..يفتخرانِ بأصُولٍ وفُروعٍ حازَتْ الكمالَ على كُلِّ الخلائقِ، ولا يجدُ الذَّمُ في نسائهم مَسْعىً..أُصُولٍ وفُروعٍ جمعُوا الجميلَ إلى الجَمَالِ، ولم تكُنْ علياؤُهُم مَنْحولةً، أوْ مَجْدُهُم مُعَاراً، وهذا ما يتَّجِهُ إليهِ القولُ فيما يأتي:

أوَّلاً: المَعَاني:-

فاضَتْ واحةُ الشِّعْرِ الفَخْري عندَ الشَّريفينِ بعدَّةِ معَانٍ قيِّمةٍ لأصولهما وفروعهما، لأنوارهما وأقمارهما في الحنَادِسِ، لأنصارهما على نَبَواتِ الدَّهْرِ، مَعَانٍ رائعةٍ تتكشَّفُ فيما هو حِسِّي، ومَعْنوي . ولكن قبلَ ذلكَ أودُّ أن أُلْفتَ نظرَ القارئ إلى أنَّ هذهِ المَعَاني مادتُها من الكثْرةِ بمكانٍ، ومن ثمّ دَعَاني المقَامُ إلى أنْ أنتقي بعضَهَا دونَ بعْضٍ، فقليلٌ جيِّدٌ يُغْني عن كثيرٍ تكرَّر.

(أ)- المَعَاني المعنويَّة، وتتمثَّلُ في:

***- الشَّجاعةُ، فهذا الرَّضي يقولُ: (المُتقارب)**

سِرَاعٍ إلى نزواتِ الخُطُوبِ يَهُزُّونَ سُمْراً ويَمْرُونَ جُرْدا

ويقولُ: (الكاملُ)

أبمعْشَري وهُمُ الأُولى عاداتُهُمْ في الرَّوْعِ ضَرْبُ طُلًى وخَرْقُ صُفُوفِ

ويقولُ المُرْتضى: (الطّويلُ)

وما فيهُمُ إلا الّذي يَشْهَدُ الوغَى فيُحْيي بها من ذا يشَاءُ ويُتْلِفُ

ويقولُ: (البسيط)

كأنَّهُمْ وُلِدُوا في الحرْبِ وارْتضعُوا بسائلٍ من نجيعِ الطَّعْنِ موَّارِ

آلُ الشَّريفينِ لا يغلبهم غالبٌ، يدَّرِعُونَ الصَّوارِمَ.. يَسْحبونَ أنابيبَ القَنَا.. يركبونَ للحَرْبِ قلائصَ كالنَّعائمِ، يَقْطعنَ الفلاةَ، ويَمْرُقْنَ مُروقاً. وأرى المَعْنى في الأبياتِ شديدَ التَّقارُبِ، نُلاحظُ هذا في قولِ الأوّلِ: (سِراعٍ، وأبمعْشَري)، وفي قولِ الثّاني: (وما فيهُم، كأنّهم)، غيرَ أنَّ الأفعالَ عندَ المُرْتضى تدلُّ على جَمَالِ الفَخْرِ، وحُسْنِهِ، فالأهْلُ عندهُ أقدرُ على الحرْبِ، وأشجعُ، تأمّل معي: (يُحْيي، ويُتْلِفُ، وُلِدُوا، وارتضعوا). وتأمّل مرّةً أُخْرى جمالَ قولِهِ: (وما فيهُمُ)، إذْ يُوحي بأنّ هؤلاءِ السَّابقينَ إلى المَعَالي سريعُونَ إلى الحرْبِ حتّى الطِّفْلُ والمولودُ. والاستفهامُ في قولِ الرَّضي: (أبمعْشري) يقولُ بأنَّ دَنيّاً عيَّرهُ، ومن ثَمَّ دقَّ زُحُوفَهُ...سقاهُ كأسَ المذلَّةِ بـ (فائيَّةٍ) تمتلئُ بأفعالِ الأمْرِ الدَّالةِ على كونِ هذا الدَّنيّ مُبْعدٌ عن شرفِ العُلى، ومقاعدِ العُظماءِ، تأمّل: (فاذْهبْ، فحذارِ، خلِّ، واشْدُدْ،...). وها هى ذي عَيْني تقعُ على بعْضِ الصِّفاتِ اللازمةِ لآلِ البيتِ، تأتي للدِّلالةِ على

(الشَّجاعةِ) كشجاعةِ اللَّيثِ المُخْتالِ في غَابِ القَنَا، أهمُّها صفة: (فوارس، وشوس)، الأولى معروفةٌ، والشُّوسُ: رفْعُ الرَّأْسِ تكبُّراً، وهذهِ تأتي في حديثِ الفخْرِ بـ (الجودِ، والحرْبِ)، وتأتي الأولى في حديثِ (الحرْبِ) فقط، كأن يقولُ الرَّضي: (الرَّجز)

فَوارِسُ الغَاراتِ لا يُطْرِبُهُمْ إلا نوازِي نَغَمِ الصَّواهلِ

ويقولُ المُرْتضى: (الكامل)

للهِ درُّ فوارِسٍ في خيْبرٍ حَمَلُوا عنِ الإسلامِ يوماً مُنْكرا

فوارسُ المُرْتضى (فوارس في خيْبَرٍ) فقط، فأين هذا من (فوارِسِ الغَاراتِ) عندَ الرَّضي؟ من فوارسٍ تَجْري رماحُهُم بالدِّماءِ، ويَخْفَى مكانُهُم . ولاحظ جمالَ قولهِ: (لا يطربهم) ، إذ يقولُ بأنَّ حديثَ الحرْبِ في إيمانهم غناءٌ وطربٌ ، حديثٌ يتسابقونَ إليهِ كالسُّيولِ الزَّواحِفِ، يتسابقُون ؛ لأنَّهُم لا يجْبنونَ ، ولا يفرُّونَ يومَ الكريهةِ ، لا يفرُّون ولا يعُودنَ إلا وقد أذاقُوا الأعْدَاءَ وبالَ أمْرهم بالصَّبْرِ والإيمانِ ، بشجاعةِ القلبِ، والإقبالِ على الموتِ، وإن كنتَ في شكٍّ من هذا فسَلْ فوارِسَ خيبرٍ.

***- الإغاثةُ ، يقولُ الرَّضي: (الهزج)**

إذا ما ثوَّبَ الدَّاعي إلى الموْتِ تداعينا

ويقولُ سنة (٣٨١ه): (الطّويل)

سَرِيعُونَ إنْ نُودوا ليومٍ كريهةٍ جَرِيئُونَ إنْ قِيْدوا ليومِ خِصَامِ

ويقولُ المُرْتضى: (م الرَّمل)

بأناسٍ كُلّما نُو دوا لمعْرُوفٍ أجابُوا

ويقولُ: (الكامل)

وتراهُمُ في كلِّ يومِ عظيمةٍ مُتنصِّفينَ إلى صريخِ الخائفِ

لا شكَّ أنَّ الإغاثةَ تنمُّ عن (الشَّجاعةِ) التي تبدو في هذهِ الأفعالِ والصِّفاتِ: (تداعينا، سريعُونَ، جريئُونَ، مُتنصِّفينَ)، وعُدْ إليها مرَّةً أخْرى ترى خيرَ منْ أقلَّتْهُم أرضٌ وسماءٌ كلمْعَةِ البارقِ تَقْضي على زَمْجَرةِ الرَّاعدِ في لمْحَةِ البصَرِ. وتأمَّل لِمَنْ الإغاثةُ ؟ إنَّها (<u>لِلْمُشْرِفِ على الموتِ، والمُعْتفي، والخائفِ</u>)، وكأنِّي بهؤلاءِ العرانينِ رُماةَ الغَوْثِ لكُلِّ واقعٍ في بليَّةٍ ولو كانَ في مَغَارةِ الجبلِ، لا يهدأونَ ولا ينامُونَ حتى ترتفع الغُمَّةُ عن الغائثِ.

وأراهُما قد اتَّفقا في مجيءِ الفعْلِ (نُودوا)، والجار والمجرور في: (ليومِ كريهةٍ، وفي كلِّ يومِ عظيمةٍ)، وجاء الرَّضي بـ (إذا، وإنْ) أداتَيْ شرطٍ، وجاءَ المُرْتضى بـ (كُلَّما) التي أراهُ تفوَّقَ على أخيهِ بها ؛ لأنَّها تُوحي بأنَّ آلَ هاشمٍ لا يملُّونَ الإغاثةَ وإن كانَتْ في كلِّ وقتٍ.

ولاحظ معي نجَاحَ الرَّضي في توازي بيتهِ الثَّاني الذي صدَّرهُ بالصَّفةِ: (سريعونَ) المُشيرةِ إلى قولهِ السَّابقِ: (سِراعٍ إلى نزواتِ الخُطُوبِ) ، المُوحي بأنَّهُم على قلبِ رجُلٍ واحدٍ.

***- الجُودُ ، يقولُ الرَّضي: (الكامل)**

يتغايرونَ على السَّماحِ كأنَّما يتغايرونَ على وِصَالِ ضَرائِرِ

ويقولُ: (البسيط)

لِقَصْدِنا تتمطَّى كُلُّ راقصةٍ هَوْجاءَ تخْبِطُ هامَ الصَّخْرِ والرَّجمِ

ويقولُ المُرْتضى: (الطّويل)

بهاليلَ وهَّابينَ كُلَّ نفيسةٍ إذا ضنَّ بالنَّيْلِ البخيلُ المُطفَّفُ

ويقولُ: (الكامل)

وندىً يفيضُ تعَجْرُفاً وتَغَشْمُراً وعجارِفُ المعْرُوفِ غيرُ عَجَارفِ

أين الفعلُ (يتغايرونَ) من الصِّفةِ والفعْلِ (وهَّابينَ، ويفيضُ) ؟ وليتهُ قال: (يتتابعُونَ) كما في قولِ ابنِ التَّعاويذي تـ (٥٨٣ه) على الوزنِ السَّابقِ: [١]

يتتابعُونَ إلى المكَارِمِ سَيِّداً منْهُمْ يَرِفُّ إلى العَلاءِ فسيِّدا

وقولُ المُرْتضى: (كلَّ نفيسةٍ) يقولُ بأنَّ عِتْرةَ النّبيِّ الكرماءَ في الدُّنيا، بهم يصولُ العُفاةُ على الخطُوبِ إذا طغَتْ، وعلى الزَّمانِ إذا قحَطَ وعَدَا، ألم يقُلْ على الوزنِ ذاتهِ:

لا يجمعونَ المالَ إلا للنَّدى أوْ لاصْطناعِ صنيعةٍ لم تُصْنعِ

وتأمّل صُورةَ النَّدى المُتعجرفِ المُتكبِّرِ في قولهِ: (تعَجْرُفاً، وتغَشْمُراً)، إذ تُوحي بندىً قد امتدَّ ظِلُّهُ على الدُّنيا، ندىً صابَ فسْحَةَ، صارتْ بهِ أيَّامُ العُفاةِ مُبْيضَّةً، ومثْلُ ذلكَ لا يُوجدُ عند الرَّضي الذي أعجبني

---

١ ـ الدِّيوانُ ص ١١٩ .

قولهُ في وصْفِ النَّاقةِ: (هوجاءَ تخبطُ هامَ الصَّخْرِ والرَّجمِ)، فالجُماليَّةُ تُوفي الزِّمامَ خُطىً في كلِّ مَجْهلةٍ..تَطْوي المناهلَ والمجاهلَ فدْفَداً من بعدِ فدْفَدٍ، وكأنَّها هى الأخرى في مَحْلٍ كراكبها. والحقُّ أنِّي وجدتُّ أفعالَ الجُودِ عند المُرْتضى أجملَ وأجودَ، إذ هى: (هتفَ، أعطوا، أسرفوا، خوَّلُوا، أمطروا، أَلِفَ، خَلَفَ) ، وجميعهُا تُوحي بأنَّ ما في أيديهم لغيرهم.

ومن طريفِ ما وجدتُّ عندَ الرَّضي صورةَ (النَّارِ) الدَّالةِ على الملاذِ والمقْصِدِ، كأن يقول:

لا نارُهُمْ نارٌ مُغمَّضةٌ ولا أبياتُهُمْ بالغائطِ المُتزاورِ (الكامل)

ثمّ عادَ فقالَ على الوزنِ ذاتهِ:

نابَ عَرْفُ الطِّيبِ عن نَارِ القِرَى في لياليهم إذا الطَّارِقُ حَارا

التَّناقُضُ في صُورةِ (النَّارِ) من الوُضوحِ بمكانٍ، إذ هى في البيتِ الأوّلِ مِسْكيَّةٌ أنفاسُها متوهِّجةٌ، وفي الثّاني مُغْمضةٌ. وتأمّل قولهُ: (نابَ عَرْفُ الطِّيبِ)، إذ أين هذا من قولِ أخيهِ على الوزنِ ذاتهِ أيضاً ؟

منْ كُلِّ مُعْتَصِبِ المفَارقِ إنْ مَشَى نمَّتْ عليهِ ثيابُهُ بتضوُّعِ

لا خفَاءَ في أفضليَّةِ بيْتِ المُرْتضى، وهو من المَعَاني التي تكحَّلت بها عُيُونُ الشِّعْرِ.

***- المَجْدُ ، فهذا الرَّضي يقولُ: (الكامل)**

ذهبُوا بِشأْوِ المجْدِ ثُمَّ تلفَّتُوا هُزُواً إلى الطُّلاعِ والطُّلاحِ

ويقولُ المُرْتضى: (السّريع)

قناتُهُمْ في المجْدِ لا تُرْتقى وجُرْدُهُمْ فى الجُودِ لا تُسْبقُ

أراهُما مُتكافئينِ، فالفعلُ (ذهبُوا) كقولِ المُرْتضى: (لا تُرْتقى)، لكنَّ الرَّضي زادَ على أخيهِ بما هو أجودُ حين قال: (ثمّ تلفَّتُوا هُزُواً.....)، فتلكَ صُورةٌ جيِّدةٌ تدلُّ على أنَّ آلَ الشَّريفينِ أصابُوا بمَجْدِهم مطْلعَ النَّجْمِ، لا بل تعدُّوا. ولاحِظْ دِقَّةَ قولهِ: (الطُّلاع والطُّلاح)، إذ فيهما يكمنُ الإيقاعُ الشِّعْريُّ ، والمُوسيقى على حدٍّ سواءٍ. وإجادةُ الرَّضي لا تقتصرُ علي هذا فقط، إذ هو أجودُ في كلِّ ما وقعَتْ عليهِ عَيْني في هذا المعْنى، تأمّل: (ضربَ المجْدُ، صاحَ بنا المجْدُ، سبقْنَا إلى المجْدِ...إلخ) ، وكأنِّي بالمجْدِ يَهْواهُم ولا يتعدَّاهُم ، حطَّ رِحَالَهُ وأقامَ إعْجَاباً بهم دونَ غيرهم.

***- الشَّرفُ ، كأن يقول سنة (٣٨١هـ): (الطَّويل)**

لهُمْ شرفٌ آبٍ على النَّاسِ أقْعسٌ وفضْلٌ عديدٌ للعَدُوِّ لُهَامِ

ويقولُ المُرْتضى: (الكامل)

غَلَبُوا على الشَّرفِ التَّليدِ وجاوزوا ذاكَ التَّليدَ تطرُّفاً وتخيُّرا

شرفُ آلِ البيتِ أقْعسٌ أيْ ثابتٌ عندَ الرَّضي، فأينَ هذا من الفعلينِ: (غلبوا، وجاوزوا) ؟ وتفوَّقَ الرَّضي مرَّةً أُخْرى في الجمْعِ بينَ : (الشَّرفِ ، والفضْلِ). والشَّرفُ عندهُ أقْعَسٌ على مَنْ ؟ على جميعِ النَّاسِ ، وهذا من محاسنهِ.

(ب)- المَعَاني الحِسيَّة، وهى:-

(١)- المكانُ ، ويشملُ الآتي :

***- البيْتُ، فهذا الرَّضي يقولُ سنة (٣٩١ه): (الرّجز)**

بُيُوتُهُمْ مَرْهُوبَةٌ تَخَالُهَا أوْلاجَ غِيْلٍ رَشَّحَتْ سِباعَهَا

ويقولُ أخوهُ: (الكامل)

فإذا سَرَحْتَ الطَّرْفَ بينَ بُيُوتهم لم تلْقَ غيرَ مُغبَّطٍ محْسُودِ

لا جَرَمَ أنَّ بيتَ الرَّضي من فاخرِ الشِّعْرِ، ومُصيبِ الوصْفِ. والمُغبَّطُ المحسودُ في بيتِ المُرْتضى ؛ ممَّا لبيوتِ بني هاشم من رهبةٍ تفتكُ بالكُماةِ، إنَّها بيوتُ أربابُ الشَّجاعةِ والعُلا، بيوتٌ كالكعبةِ تحُجُّ إلى أبوابها الآمالُ وتعتمرُ. ولعلَّكَ لاحظتَ أنَّ البيتَ الأوّلَ سببٌ، والثّاني مُسبَّبٌ، وأنَّ كلا الأخوينِ قال: (بيوتهم) ؛ للدَّلالةِ على أنَّها مُتكافئةٌ، ومن أدْرى بها منهما ؟

ووجدتُّ عندَ المُرْتضى ما لم أجدهُ عندَ أخيهِ، وهو قولهُ : (الرّجز)

لمْ تَدْخُل الفحشاءُ في أبياتنا ولمْ تُشِرْ يوماً إليهنَّ الظِّنَنْ

بيوتُ آلِ أحمدَ بيوتُ فَخْرٍ وعِزٍّ، لها فَضْلٌ وإفضالٌ ببركةِ أهلها، يمينُ قريشٍ، ببركةِ منْ سكنُوا بطْحَاءَ مكَّةَ، وسكنَ غيرُهُم الوهْدةَ والجبلَ ، ولله درُّهُ حينَ قالَ: (الوافر)

فلا تَسْتوطِنُوا إلا وِهَادًا فإنَّ لِغَيْرِكُمْ قُلَلَ الرَّوابى

وتأمّل جمالَ قولهِ: (لم تَدْخُل، ولمْ تُشِرِ يوماً...)، إذ يُوحي بأنَّها تَخْلُو من الفاحشِ والمُتفحِّشِ، من البُخَّالِ والجُبناءِ، من كلِّ خَصْلةٍ قبيحةٍ ؛

ليبقى لها الطُّهْرُ...التَّلاقي بالتَّحيَّةِ والإكرامِ، بطه، والنَّمْلِ، والشُّعراءِ، والسَّبْعِ المثَاني...ليبقى لها الأمنُ والمعروفُ، البِرُّ والإحْفَاءُ.

وقد يُرادُ بالبيتِ (مكَّة) كما في قولِ الرَّضي: (الرَّجز)

مِنْ هاشمٍ أكْرَمِ مَنْ حَجَّ ومَنْ جلَّلَ بيْتَ اللهِ بالوصَائلِ

وقولِ المُرْتضى: (الوافر)

فإنْ عدُّوا خَوَرْنَقَهُمْ عَدَدْنَا لنا البيتَ المُحرَّمَ والحَجُونا

لا فضْلَ لأحدٍ على الآخرِ ؛ لتساويهما، إذ الأولُ يُباهي ويُفاخرُ بالأجدادِ، والأحياءِ، بالقبائلِ، ومكَّةَ، وكلُّ هذا في قولِ المُرْتضى: (لنا). وفي قولهِ التَّالي تأكيداً وتثبيتاً لأسبقيَّةِ آل هاشم مَجْداً ومُرْتقىً: (الطّويل)

ولمَّا بنيْتُمْ ذِرْوةَ المجْدِ والنَّدى هزأْتُمْ بقومٍ يبْتَنُونَ الخَورْنَقَا

ووجدتُّ عند المُرْتضى أماكنَ أخْرى أهْلاً لِكُلِّ فخْرٍ، كـ (عرفات، والمُزْدلفة، والحجَرَ، ومِنى، وزمزم)، كأن يقول: (الكامل)

لهُمُ مِنىً والموقفانِ وزمْزمٌ والبيتُ والتَّطْوافُ والتَّجْويلُ

والحِجْرُ والحَجَرُ الذي لِصِفَاتهِ أبدَ الزَّمانِ الضَّمُّ والتَّقْبيلُ

ومن الشُّعراءِ – وهُمْ كُثُرٌ- من فعلَ هذا كالبُحْتريِّ حين قال: [1] (الخفيف)

لهُمُ زَمْزمٌ وأفْنيةُ الكَعْـ ــبةِ والحِجْرُ والصَّفا والمُصلَّى

١-الدِّيوانُ ٣ / ١٦٥١.

ولم أجِدْ مثلَ ذلك عندَ الرَّضي. وعُدْ إلى قولِ أخيهِ: (أبدَ الزَّمانِ الضَّمُّ والتَّقْبيلُ)، إنَّهُ النَّهْبُ المُباحُ لأبوابِ الخيرِ، ومفاتيحِ الحَمْدِ.

ويدخلُ في هذا الفخْرُ بـ (الغزواتِ)، كأن يقول الرَّضي: (الطّويل)

وَمِنْ قبْلِ ما أبْلَى ببدْرٍ وغيرِهَا ولا موقفٍ إلا لهُ فيهِ موقِفُ

ويقول المُرْتضى: (الوافر)

بخَيْبرَ أوْ ببدْرٍ أوْ حنينٍ وأُحْدٍ والمنايا يَرْتمينا

المُرْتضى رائعٌ، رائعٌ في قولهِ: (والمنايا يرتمينا)، والرَّضي يتحدَّثُ عن أبيهِ، فهل حَضَرَ بَدْراً ؟

(٢)- الزَّمانُ، لم أجِدْ من ذلك إلا قول المُرْتضى من القصيدةِ ذاتها:

وإنْ فخروا بِطِخْفةَ أوْ كلابٍ فخَرْنا باللَّيالي الغُرِّ فينا [١]

المُرْتضى هُنا يفتخرُ على غيرِ مَعْلُومٍ، وأحلى من هذا أن يكونَ فخرهُ بكُلِّ اللَّيالي.

(٣)_ آلاتُ الحَرْبِ، وهى:

(أ)– الجيشُ، كأن يقول الرَّضي على الوزنِ ذاتهِ:

نَجُرُّ إلى العُداةِ سُلافَ جيشٍ كَعَرْضِ اللَّيلِ يتَّبِعُ اللِّواءَ

ويقولُ المُرْتضى: (الطّويل)

وجيشٍ كما مدَّ الظَّلامُ رِوَاقَهُ سواءٌ بهِ هَضْبُ "العريكِ" وَهَضْمُهُ

١ـ طِخْفةُ موضعٌ، ومنه يوم طِخْفة لبني يربوع على قابُوس بن المُنْذر بن ماءِ السَّماءِ.

الجيشُ عند الرَّضي مُقدّمتهُ كعَرْضِ اللَّيلِ، فأين المُرْتضى من هذا ؟ ومن مَفَاخرِ الرَّضي أنَّ الجيشَ أشبعَ الطَّيرَ من لُحُومِ الأعداءِ كمذهبِ بعضِ الشُّعراءِ، ولكنِّي أراهُما دونَ قولِ الشَّاعرِ: (١)

ويسدُّ أرجاءَ البلادِ بفيلقٍ لجبٍ عظيمٍ يُطْرِشُ الآذانا (الكامل)

هذا أحلى، فالجيشُ يسدُّ النَّواحي، شرقَ البلادِ وغربها، ومن قوّتهِ وكثرتهِ يُصِيبُ كلَّ الآذانِ بالصَّمِ، وإن كنتُ آخذُ عليهِ كلمةَ (يُطْرِش) ؛ لأنَّ النَّفْسَ تعافها.

(ب)– الفتيانُ، يقولُ الرَّضي: (الطَّويل)

إذا هَمَّ أعْطَى نَفْسَهُ كُلَّ مُنْيةٍ وقعْعقَعَ أبوابَ الأُمُورِ العظائمِ

ويقولُ المُرْتضى على الوزنِ ذاتهِ أيضاً:

وما فيهُم إلا فتىً ما تلبَّستْ بهِ الحرْبُ إلا كانَ عَضْباً مجرّدا

الرَّضي يتحدَّثُ عن فتىً حِرْفَتُهُ الحربُ، إذ قال: (أعْطَى نفسهُ كلَّ مُنْيةٍ)، والمُرْتضى تحدَّثَ عن فتيانِ الأحياءِ والقبائلِ من أعلى نِزار حينَ قال: (وما فيهُمُ)، فأينَ الرَّضي من هذا ؟ على أنَّ بيتهُ لا يخلُو من الجمالِ، فكفاهُ قولُهُ: (وقعْقَعَ أبوابَ الأُمورِ العظائمِ)، إذ يُوحي بأنَّ فتاهُ مُسْتيقظُ العزماتِ طَعْناً وضَرْباً، لهُ الأسنَّةُ رُكَّعٌ، والبيضُ سُجَّدٌ.

(ج)– السَّيفُ، فهذا الرَّضي يقول: (المتقارب)

---

١ ـ ديوان الحيسي تح وتعليق/ عبد العليم عيسى ١٦٦ ط وزارة الثّراث القومي والثّقافة مع عيسى البابي الحلبي ١٤٠٢ه = ١٩٨٢م.

سُيُوفٌ تُطِيْلُ قِرَاعاً وَقَرْعَاً وخَيْلٌ تُعِيدُ طِرَاداً وَطَرْدا

ويقولُ المُرْتضى: (السَّريع)

بكُلِّ مَشْحُوذِ الظُّبا أبيضٍ وأسْمَرٍ يعلُو بهِ أزْرَقُ

الرَّضي يفتخرُ بالسُّيوفِ والخيلِ، ويفتخرُ أخوهُ بالسُّيوفِ والرِّماحِ، وكلاهُما أتى بالسَّيْفِ في موضعِ الجمْعِ، فقال الأوّلُ: (سُيُوفٌ)، وقالَ الثَّاني: (بكُلِّ مشْحُوذِ).

وأحسبُ أنَّ الفعلَ (تُطِيلُ) أعطى بيتَ الرَّضي أسبقيَّةً ملحوظةً، فالسُّيوفُ تطولُ كلَّ مُغامرٍ، ومُغاورٍ، كلَّ باسلٍ وناكلٍ، تغتالُ طُولَ البُعْدِ الأبيضَ والأسمرَ، تحملُ ماءً ونار اً. والفعلُ: (تُعيدُ) يُشيرُ إلى وَهْوَهَةِ الخيْلِ في كلِّ هَوْجلٍ، وكونها مُدرَّبةً، تُقارِعُ، وتُكافِحُ. ولاحظ قولهُ: (قِرَاعاً، وقَرْعاً، طِرَاداً، وطَرْداً)، إذ كأنِّي بقعْقعةِ السُّيوفِ فوقَ رؤوسنا، والضَّرْبِ هَنِيءُ المواردِ، جمُّ الحياضِ، كذلك لاحظ مهارةَ المُرْتضى في استخْدَامِ ألوانِ الرِّماحِ، إذ هى: (الأبيض، والأسمر، والأزرق)، ومن ثَمَّ فليسَ من عجبٍ أن ترْمُقَها السَّماءُ، وأن تُلْقي عليها النُّجُومُ نِثَاراً . وإن أردتَّ مزيداً هاك:

(د)– الرِّماحُ، يقولُ الرَّضي: (المُتقارب)

ثُلاثُ بُرُودُهُمُ بالرِّماحِ وتُلْوَى عَمَائِمُهُمْ بالشُّهُبْ

ويقولُ المُرْتضى: (الوافر)

يُطاعِنُ بالرِّماحِ فلا يُبالي سليماً عادَ منها أمْ طعينا

الرِّماحُ عندَ الرَّضي انتهتْ من أعمالِ الحرْبِ، فالتاثَ بها الهاشميُّونَ، والطَّالبيُّونَ، والفاطميُّونَ، فأين المُرْتضى من هذا ؟ وما أظنُّ مهياراً تـ (٤٢٨ه) إلا آخذاً هذا المَعْنى حينَ قالَ يفتخرُ بقومهِ: [١]

عمَّمُوا بالشَّمْسِ هاماتِهِمْ وبَنَوْا أبياتَهُمْ بالشُّهبِ (الرّمل)

لا فَضْلَ للأُستاذِ على تلميذِهِ، ولا للتِّلميذِ على الأُسْتاذِ، فهُما في عيْنِ الفخْرِ مُتكافئانِ وإن سَبَقَ الرَّضي إلى هذا المَعْنى الحُلْو، والفَخْرِ العاطِرِ الصَّائبِ الذي يليقُ بمن كانُوا في المَعَالي فوقَ النُّجُومِ نُجُوماً. ومن الشُّعراءِ من وقعَ على الحافرِ ذاتِهِ ، كقولِ "ابن نُباتة السَّعْدي" تـ (٤٠٥ه) مُفْتخراً: [٢] **(الطّويل)**

هُمُ القومُ لا يُسْتصرخونَ لحادثٍ من الدَّهْرِ إلا والسُّيوفُ عَمَائِمُ

العمائمُ عندَ الرَّضي من (الرِّماحِ)، وهُنا من (السُّيوفِ).

وهُناك أيضاً الافتخَارُ بـ (الأخلاقِ، والتَّجاربِ، بالخيْلِ المُطهَّمةِ، والمالِ، والطِّفْلِ) إلى غيرِ ذلك من كريم المغارسِ لآلِ هاشمٍ، وكُلُّها تتغنَّى بمفَاخرَ كالنُّجُومِ الزُّهْرِ تفوتُ كلَّ عدٍّ وحصْرٍ، مفاخرَ أبْقَى من الدَّهْرِ، وهي في مِعْصَميْهِ سِوارٌ.

---

١ ـ الدِّيوانُ ١/ ٦٤ ط الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، سلسلة (الذّخائر)، العدد (١٦٥)، ٢٠٠٨م.

٢ـ الدِّيوان دراسة وتـح/ عبد الأمير مهْدي حبيب الطّائي ٢٦٧/١ ط وزارة الإعلام (الجمهورية العراقية)، ١٩٧٧م.

ثانياً: النُّعوتُ:-

في هذا الجانبِ نتعرَّفُ على نُعُوتِ آلِ البيتِ، وأحسبُهَا خلَتْ من الابتكارِ ؛ لأنَّ كلا الأخوينِ وقَعَا على ذاتِ حافرِ جُلِّ الشُّعراءِ من حيثُ المُتعارفُ عليهِ في هذا البابِ، بل أراهُما دونَ غيرهما، فانْظُرْ ماذا ترى:

(١)– البحْرُ، فهذا الرَّضي يقولُ: (م الكامل)

ما كُنْتُمُ إلا البُحُو رَ تَوالَغَتْ فيها الذِّئابُ

ويقولُ المُرْتضى : (الكامل)

كالبحْرِ تلْتَمِعُ الأسِنَّةُ والظُّبا في قَعْرِهِ بَدَلاً من الأمواجِ

بيتُ المُرْتضى أبلغُ من كلِّ وجْهٍ، إذ أينَ الفعلُ (توالغَتْ) من الفعلِ (تلتمعُ) ؟ وما أرى الشِّعْرَ الحَفِيَّ يُقِرُّ مجيءَ كلمةِ (الذِّئاب) بدلاً من (الكلاب) ما دام المقامُ للفَخْرِ ؛ لا سيَّما وأنَّها لم ترِدْ في قافيةِ القصيدةِ. وتأمّل الجمْعَ في: (الأسنَّة، والظُّبا)، إذ يُوحي بأنَّ المُشبَّه بهِ يَهْنأُ بهِ الرَّائي. وأراهُما دونَ ابنِ الرُّومي حينَ قال: (البسيط)

كالبَحْرِ أرْوى بني الدُّنْيا وأغْرَقهُمْ فَهُمْ رِواءٌ وغَرْقى في سَواحلِهِ

المُقابلةُ جِدُّ رائعةٍ، ففي الوقْتِ الذي يَعْيا فيهِ ابنُ الرُّومي من ظمأِ العطَاءِ يَغْرَقُ السُّبحاءُ فيهِ. وهذا المعْنَى أخذهُ "ابنُ التَّعاويذي" لا محالةَ حينَ قال: (المُتقارب)

ويُفْتَحُ بابُ النَّدى للْعُفَاةِ ويُغْلقُ دُوْني فلا يُفْتحُ

وأُمْنَعُ وَحْدِي عن مَوْرِدِ الـ ـعطَاءِ وَبي ظمأٌ يَذْبحُ

ولكن أين هو من "ابنِ الرُّومي" ؟ فالخيرُ عندهُ قد وصلَ إلى كُلِّ أبناءِ الدُّنيا، ويَجْتَنُونَ العيشَ سَهْلاً. وحين نقرأُ البيتينِ الأخيرينِ نتعجَّبُ ؛ لما فيها من الإيحاءِ بأنَّ "ابن التّعاويذي" يُمْسَكُ عنهُ العطَاءُ ، والماءُ ، والهواءُ ، وأنَّهُ يكادُ يموتُ جُوعاً.

(٢)– الأسَدُ، كأن يقول الرَّضي على الوزنِ ذاتهِ:

كأنَّ الصَّريخَ يُهَاهِي بِهِمْ أُسُوداً تَهُبُّ مِنَ الغيْلِ رُبْدَا [١]

ويقولُ المُرْتضى: (الكامل)

وكأنَّهُمْ يومَ الوَغَى خَلَلَ القنا حيَّاتُ رَمْلٍ أوْ أُسُودُ عَزِيْفِ

الدِّقَّةُ للمُرْتضى ؛ لأنَّهُ جمعَ بينَ تشبيهينِ أوَّلهُما أحسنُ، وهو أحسنُ من قولِ ابنِ التَّعاويذي:

حيَّاتُ وادٍ في نُحُو رِ الدَّارِعينَ لها انْسِيابُ (م الكامل)

أينَ حيَّاتُ وادٍ من حيَّاتِ رَمْلٍ؟ والفعلانِ: (يُهاهي، وتهبُّ) من الحُسْنِ بمكانٍ، فالصَّريخُ في الأوَّلِ يستحثُّ الخيلَ على الطَّرْدِ والاستزادةِ، والمُشبّه بهِ في الثَّاني كالرِّيحِ ثارتْ وهاجتْ هَيَاجَ الفَحْلِ. وهُناكَ أيضاً عندَ الرَّضي: (الصَّخْرُ، والنَّارُ، والعينُ، والمطرُ، والشُّهُبُ)، وعندَ المُرْتضى: (البدورُ، والشُّموسُ)، وهى عندَ الرَّضي أسبقُ ، كفانا قولهُ: (البسيط)

---

١ ـ هاهى بهِ : قال لهُ : هيه ، وهي كلمةُ طرْدٍ واسْتزادةٍ ، والرُّبْدةُ : الغُبْرةُ.

كالصَّخْرِ إنْ حَلُموا، والنَّارِ إنْ غَضِبُوا والأسْدِ إنْ رَكِبُوا والوبْلِ إنْ نَزَلُوا

فهل هذا يُوزَنُ بقولِ أخيهِ على الوزنِ ذاتهِ:

شُموسُ دَجْني ومِقْباسي على غَسَقٍ وفي الحَنَادِسِ أنوَاري وأقْمَاري ؟

بيتُ المُرْتضى أحسبهُ ليسَ من جيِّدِ الفخْرِ ؛ لأنَّه جعلَ عُدَدَ الإسلامِ، وبهاليلهُ شُموساً، وأقماراً لهُ فقط، تأمّل: (دَجْني، أقْمَاري....). وها هى ذي عَيْني تَرْصُدُ أوصافاً أُخْرى (لأعضائهم) تُعدُّ من تَمَامِ الفخْرِ بهم، هى:

(أ)- الوجْهُ، فهذا الرَّضي يقولُ: (الطّويل)

ذَوُو الجَبَهاتِ البيضِ تَلْمعُ بينهَا وُسُومُ المَعَالي والوُجُوهِ المُضيئةِ

ويقولُ المُرْتضى: (الكامل)

وإذا الوُجُوهُ تكالحَتْ حَذَرَ الرَّدى فوجُوهُهُمْ أقْمارُ كُلِّ عَجَاجِ

أينَ المُرْتضى من أخيهِ ؟ فبيتُهُ مُتأخِّرٌ لا نرتابُ في هذا ؛ لأنَّ كلمةَ (عجاجٍ) في غيرِ موضعها، وغيرُهَا أصحُّ وأدقُّ، كأن يقول: (أقمارُ كلِّ دياجى) ؛ لتتَّضِحَ الوجوهُ، وكذلك الفعلُ: (تكالحَتْ) بعيدٌ عن أيِّ دِقَّةٍ، والأولى أن يأتي بفعْلٍ يدلُّ على الأسى والأسفِ، على الفزعِ من الموتِ كـ (انكدرتْ). ونعودُ إلى الرَّضي فنجدهُ كان دقيقاً حين أتى بـ (الجبهاتِ) جَمْعاً، ونعتها بـ (البيضِ)، وأتى بالفعلِ: (تلمعُ) ؛ للدِّلالةِ على استحسانهِ، واستحسانِ ما تقعُ عليه عينُ الرّائي، إنَّها تقعُ على : (وُسُومِ المعالي)، و(الوجوهِ) المنعوتةِ بـ (المضيئةِ)، فأيُّ شيءٍ أحسنُ من هذا ؟ والوجهُ الجميلُ -كما يقولُ "الآمدي" تـ (٣٧٠هـ) -"يزيدُ في الهيبةِ، ويتيمَّنُ بهِ

العربُ ؛ لأنَّهُ يدُلُّ على الخصالِ المحمُودةِ، كما أنَّ قُبْحَ الوجْهِ والدَّمامةَ يُسْقِطُ الهيبةَ، ويدُلُّ على الخصالِ المذْمُومةِ، وذلك ما تكرهُ العربُ، وتتشاءَمُ بهِ ؛ لأنَّ أوَّلَ ما تلقاهُ من الإنسانِ وتُعاينهُ وجهُهُ". [1]

(ب)- الجبينُ، كأن يقول الرَّضي: (الطّويل)

وأبيضَ بسَّامٍ كأنَّ جبينَهُ سَنَا قَمَرٍ أوْ بَارِقٌ مُتكشِّفُ

ويقول المُرْتضى: (الكامل)

فلقد قطعْتُ العُمْرَ في قومٍ لَهُمْ في كلِّ مكرُمةٍ جبينٌ مُشْرِقُ

جبينُ أعزِّ النَّاسِ شَرْقاً وغرْباً سَنَا قمرٍ عند الرَّضي، مُشْرِقٌ عند أخيهِ، فلا غالبَ ولا مغلوبَ، وقُلْ مثلَ ذلكَ في الحديثِ عن:

(ج)- اليدُ، يقولُ الرَّضي على الوزنِ ذاتهِ:

وإذا التقَتْ أيْدِيهُمُ في أزْمةٍ سَاجَلْنَ أذْنِبةَ السَّحابِ الماطِرِ

وها هو ذا أخوهُ يقولُ على الوزنِ ذاتهِ أيضاً:

أيد تفجَّرُ بالعطَاءِ سَمَاحةً فتوالُدٌ في بذلها كطوارِفِ

يدُ الهاشمي أمُّ الجُودِ، يدٌ أماتتِ السُّؤالَ، وأحيتِ النَّوالَ ، لا تُبْقي على شيءٍ، تُعْطي المالَ التَّالِدَ والطَّارفَ للمُوالي والمُعادي ، هكذا يقولُ الفعْلُ: (تفجَّرُ) ، والنَّعْتُ في (الماطِرِ).

١- المُوازنةُ بين شعر أبي تمّام والبُحْتري تح / السيّد أحمد صقر ٣٦٨/٢ ط ٥ ط دار المعارف ١٩٩٤م.

وهناك أيضاً الفخْرُ بـ (الكفِّ)، وهو كالفخْرِ بـ (اليد)، وكذلك الفخْرُ بـ (القدمِ) عندَ الرَّضي، و (الذِّراعِ) عندَ أخيهِ، فهذا خُلِقَ لما خُلِقَتْ لهُ: (اليدُ، والكفُّ)، وخُلِقَتِ (القدَمُ) للعَوالي، والظُّبا، خُلِقَتْ من قَسْوةٍ وجَفَاءٍ، تفوتَ الرِّيحَ جَرْياً ونجَاءاً، أماماً ووراءً.

ثالثاً: التِّكـرارُ:

"ظاهرةُ التِّكْرارِ من الظَّواهرِ التّعبيريَّةِ التي تعاملَ معها الشُّعراءُ ، ووظَّفُوها لإنتاجِ الدِّلالةِ ، وحقَّقوا بها نوعاً من الإيقاعِ الذي يُؤكِّدُ طبيعةَ الشِّعريّةِ في صياغتهم ، وقد اهتمَّ النقَّادُ العربُ القُدامى بهذه الظَّاهرةِ ، ورصدوا أشكالها التَّعبيريّةِ تحت مُسمَّياتٍ كثيرةٍ بعضُها يتَّصِلُ بالتِّكْرارِ الشّكْلي ، وبعضُها يتَّصِلُ بالتِّكْرارِ الدَّاخلي أو العميقِ ، ورأوا أنَّ هذا النَّمطَ التَّعبيريَّ له ناتجٌ دلاليٌّ قد يكونُ تأسيسيّاً ، وقد يكونُ توكيديّاً ، تبعاً للسياقِ الذي يردُ فيهِ ، والشّكلِ الذي جاء عليهِ" [1] ، فهذا السُّيوطيُّ تـ (٩١١هـ) يقولُ: "إنَّ من سُنَنِ العربِ التّكريرَ والإعادةَ" [2] ، وهذا الرَّافعيُّ يقولُ تـ (١٣٥٦هـ= ١٩٣٧م) "وهو مذهبٌ للعربِ معروفٌ" [3] . "وقد ظلَّ هذا الاهتمامُ منوطاً بالتِّكْرارِ في دائرةِ الجزئيّةِ ، على معنى رصدهِ عندما يأتي في الجُمْلةِ أو الجُمْلتينِ ، ولم يكُنْ هناكَ اهتمامٌ بهِ على مُسْتوى النَّصِّ

١ ـ قـراءاتٌ أُسـلوبيَّةٌ فـي الشِّـعْرِ الحـديثِ د. محمّـد عبـد المطّلـب ص ١٠٧ ط الهيئـةُ المصريّةُ العامةُ للكتابِ ١٩٩٥ م .

٢ ـ المُزْهرُ في علومِ اللغةِ وأنواعها للسيوطي تـح / محمّد أحمد جاد المولى وآخرين ٣٣٢/١ ط دار الفكر بدون تاريخ .

٣ ـ إعجازُ القُرآنِ والبلاغةِ النَّبويّةِ / مصطفى صادق الرَّافعي ص ١٥٢ ط مكتبة مصر ١٩٩٩م .

الأدبيِّ ، فضلاً عن الاهتمامِ بهِ على مُسْتوى الإنتاجِ الأدبيِّ في جُمْلتهِ ، لكن هذا لا ينفي وجودَ إشاراتٍ هنا أو هُناك ترصدُ ظاهرةً تكراريّةً في دائرةِ الإنتاجِ الكُلِّي من مثلِ مُلاحظةِ "ابنِ سنانِ الخفاجي" تـ (٤٦٦هـ) [١] الذي رأى أنّ لبعضِ الشُّعراءِ ميلاً خاصّاً إلى بعضِ التَّعبيراتِ التي يؤثرونَ إيرادَهَا في أشعارِهم ، حتّى لا تخلو بعضُ قصائدهم منها ، وربّما كانت هذه الألفاظُ مُخْتارةً في موقعها حتى يسهل الأمرُ في إعادتها وتكريرها ، وربّما كانت على خلافِ ذلك". [٢] والقارئُ في بابِ الفَخْرِ عندَ الشَّريفينِ يُلاحظُ أنَّهُما اتَّخذا منهُ بُعْداً فنِّيَّاً ينسَجِمُ مع أهمِّيتهِ اللُّغويَّةِ، وقُدْرتهِ على الدِّلالةِ والإيصالِ، وأداءِ المَعَاني بشكلٍ فنِّي رائعٍ، وهو يظهرُ في أشْكالٍ وصورٍ مُتعدِّدةٍ تدلُّ على التَّباهي والتَّفاخُرِ بهؤلاءِ المرازبةِ، الميامينِ، الكُمَّلِ هى:

(١)- تكرارُ الكلمةِ:

تُعدُّ كلمةُ (قَوْمي) بكُلِّ مُشْتقَّاتها أكثرَ الكلماتِ دوراناً على لسانِ الشَّريفينِ تعبيراً عن الفرحةِ المُزغْردةِ، والنَّشْوةِ الطَّائرةِ بهؤلاءِ الأشْرافِ، وتأتي في هذهِ المواضعِ:

(أ)- الإضافةُ، كأن يقول الرَّضي: (المتقارب)

أولئكَ قَوْمِيَ لمْ يُغْمَزوا بِهُجْنةِ أمٍّ ولا لُؤْمِ أبْ

ويقولُ أخوهُ: (البسيط)

---

١ ـ انظر : سرّ الفصاحة شرح وتصحيح / عبد المُتعال الصّعيدي ص ٩٦ ط صُبيح بمصر ١٩٦٩م .

٢ ـ قراءاتٌ أُسلوبيّةٌ ص ١٠٧ .

أُولاكَ قَوْمي فجيئُوني بمثْلِهمُ في منزلٍ هابطٍ أوْ ظاهرٍ ضاحِ

النَّفْيُ في قولِ الرَّضي: (لم يُغْمزوا)، وفعْلُ الأمرِ في قولِ أخيهِ: (جيئوني) يُوحيان بغايةِ التَّحدِّي، غايةِ الواثقِ بأنَّ هؤلاءِ القومِ لم يُعابُوا قطّ، وكيف يُعابُونَ وفيهم أنزلَ اللهُ وحيَهُ، وفيهم مواريثُ الخلافةِ، وفيهم تُسنُّ المكْرُماتُ فتُقْتَفَى، لم يُعابُوا ؛ لأنَّ اللهَ لم يَخْلُقْ لهُم شبيهاً، أرأيتَ قولَ المُرْتضى ؟ (الكامل)

إنَّ الّذينَ أعدُّهمْ من عُنْصري وبهمْ إذا فاخرْتُ يوماً أعْلِقُ

لم يخْلُقِ الرَّحْمانُ شِبْهاً واحِداً لهُمُ ولا هو بعدَ ذلكَ يخلُقُ

وهذا كقولهِ: (السّريع)

ما خلقَ اللهُ لنا مُشْبهاً في غابرِ الدَّهْرِ ولا يخْلُقُ

وعُدْ إلى فعْلِ الأمرِ مرَّةً أخرى تجدهُ يُوحي بأنَّ المُخاطبَ يقفُ عاجزاً عن إيجادِ شبيهٍ لهُمْ في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ. ونلاحظُ الدِّلالةَ الكامنةَ في مجيءِ (اسمِ الإشارة) مردوفاً بكلمة (قَوْمي) في صَدْرِ البيتِ، إذ أرادا تنبيه القارئ إلى الإصْغَاءِ والتّلهُّفِ للمُشارِ إليهِ. وممَّا لاحظتهُ أنَّ كلَّ الأبياتِ التي وردَتْ فيها هذهِ الكلمةُ بدأتْ بها ما خلا هذينِ البيتينِ، كأن يقول الرَّضي: (قومي الأُولى، قومي همُ النَّاسُ، قومي أُنُوفٌ)، ويقولُ المُرْتضى: (قَوْمي الأُلى، قَوْمي الذين).

(ب)- التَّنْكيرُ، فهذا الرَّضي يقولُ: (الكامل)

قَوْمٌ إذا اشْتَجرتْ عليهِمْ خُطَّةٌ زَعَمُوا النَّوائبَ بالقنا المُتشاجِرِ

ويقولُ المُرْتضى: (البسيط)

قَوْمٌ إذا ركبوا يَوْماً على عَجَلٍ ضاقَ الفضاءُ وسدُّوا كُلَّ صَحْصَاحِ

بيتُ المُرْتضى أجودُ وأصح، فإذا كانت هذهِ صفةُ القومِ على (عجلٍ)، فما بالُنا إن تمهَّلُوا في إعدادِ العُدَّةِ، وإحكامِ الخُطَّةِ ؟ وتأمّل دِقَّةَ قولهِ: (ضاقَ الفضاءُ.....)، فالجوُّ والبرُّ لا مجالَ للحركةِ فيهما أمامَ قوَّةِ الجيشِ وكثرتهِ، والمُرْتضى في هذا يَسْبِقُ قولَ من قالَ آنفاً:

ويسدُّ أرْجاءَ البلادِ بفيلقٍ لجبٍ عظيمٍ يُطْرِشُ الآذانا

جيشُ هذا يسدُّ البرَّ، وجيشُ المُرْتضى يسدُّ البرَّ والفضاءَ، فأين الأوَّلُ من هذا ؟ وعُدْ إلى بيتِ المُرْتضى ثمَّ تأمَّل وقوعَ أحدهما على حافرِ الآخرِ في قولِ أخيهِ: (الوافر)

إذا ركبُوا تضايقتِ الفيافي وعطَّلَ بعضُ جَمْعِهُم الفضَاءَ

إنْ قالَ قائلٌ: هذا أشعرُ لكلمةِ (بعض) ؟ قلتُ: هى في عَيْني كقولِ أخيهِ: (على عجلٍ).

وكم أنا مُغْتاظٌ من الرَّضي في قولهِ: (اشتجرَتْ)، فالفعلُ يُوحي بالتَّنازُعِ والتَّخالُفِ، وكأنِّي بالقومِ غيرُ أكْفَاءٍ. ونراهُ أتى بكلمةِ (خُطّة)، وهى من الكلماتِ الدَّائرةِ في هذا البابِ بشكلٍ مُكثَّفٍ، منها قولهُ: (السّريع)

وخُطَّةٍ يَضْحكُ منها الرَّدى عَسْراءَ تَبْري القومَ بَرْى القِدَاحْ

وقولُ المُرْتضى: (الكامل)

وإذا هَوَوْا منْ نجدةٍ في خُطَّةٍ لم يَثْنهم عنها نعيقُ النَّاعِقِ

المَعْنى مُتقاربٌ في عَيْني، ولكنَّ جمالَ الصُّورةِ يُصافِحُ الرَّضي، بل يُعانقهُ. والمُلاحظُ أنَّها جَاءتْ في مَقَامِ (الحَرْبِ)، وجاءَ بها المُرْتضى في بابِ مُعاتبةِ أخيهِ بقولهِ: (الطّويل)

إذا اتَّسَعتْ في خُطَّةِ الصَّدِّ فِكْرتي تجلَّلني همٌّ يضيقُ بهِ جِلْدي

المُرْتضى في صراعٍ بينَ عَقْلهِ ونَفْسهِ ؛ لِفراقِ أخيهِ. ولعلَّكَ لاحظتَ أنَّ كلمةَ (قَوْمي) قد أتتْ في صَدْرِ البيتِ، ويأتي بعدها شرطٌ لازمٌ في جلِّ ما وجدتَ، هو (إذا). وقد يأتي بعدها (جارٌ ومجرورٌ) كقولِ الرَّضي: (قومٌ لأيديهم)، و(فعْلٌ) يأتي مُضارعاً كقولِ أخيهِ: ((قومٌ يخوضونَ)، وماضياً كـ: (وأقوامٍ جَروا)، ونراها سُبِقتْ بـ (الواوِ) كقولهِ أيضاً: (وقومٌ لَهُمْ في كلِّ علياءَ منزلٌ).

(ج)- التَّعْريفُ، فهذا الرَّضي يقولُ: (الطّويلُ)

وإنِّي منَ القومِ الّذينَ ببأْسِهِمْ يُذلَّلُ مِنْ أيَّامِهِمْ حَدَثانُهَا

ويقولُ المُرْتضى على الوزنِ ذاتهِ:

وإنِّي منَ القومِ الّذينَ إذا انْتَموْا أسَالُوا منَ السَّاداتِ بحْرَا غُطامِطَا

الوزنُ واحدٌ، والمَعْنى مُتقاربٌ، وهل رأيتَ وحْدَةَ الصِّياغةِ في قولهما: (وإنِّي من القومِ الّذينَ) ؟ إنّهُ الفخْرُ الباحثُ عن التَّماثُلِ في غاياتهِ ومُنْتهاهُ. وقد جاءت كلمةُ (القومِ) مُؤكَّدةً، مَسْبوقةً بـ (مِنَ)، وقد تُسْبقُ بـ (اللامِ ، والاستفهامِ) في قولِ الرَّضي: (إنِّي لقومٍ ، ألستُ منَ القومِ).

والشَّيءُ الخاطِفُ لعينِ القارئ هو وجُود (إذا) كأداةِ شرطٍ بشكْلٍ شبهِ دائمٍ بعدَ هذهِ الكلمةِ في حالتي: (التّعريفِ، والتَّنْكيرِ) كما رأينا.

(٢)- تكرارُ الحرْفِ:-

كثيرةٌ هى الحروفُ الدَّالةُ على التَّفاخُرِ، وهذه هى على حسبِ حُروفِ المُعْجمِ:

(أ)- إنَّا، فهذا الرَّضي يقولُ: (الكامل)

إنَّا نعيبُ ، ولا نُعابُ ونُصيبُ منك ، ولا نُصَابُ

ويقولُ المُرْتضى على الوزنِ ذاتهِ:

وإنَّا إنْ شَهِدْنا الحرْبَ يَوْماً فَرَيْنا بالسُّيوفِ وما فُرِينا

آلُ النبيِّ ورَهْطُهُ يَقْتُلونَ عندَ المُرْتضى ولا يُقْتلون، فأين الرَّضي من هذا ؟ ولا جَرَمَ أنَّ قولهُ: (إنَّا نعيبُ) قد ذهبَ بجمالِ الفَخْرِ. وأراهُ ممَّا لا يُذْكرُ ؛ لِبُعْدهِ عن أخلاقِ أبناءِ عبدِ مناف القائلُ فيهم أخوهُ آنفاً: (الرّجز)

لمْ تَدْخُل الفحْشَاءُ في أبياتنا ولمْ تُشِرْ يوماً إليهنَّ الظِّنْ

وأحسبُ أنَّ نَعْرةَ التَّعاظُمِ أعْلى عندَ الرَّضي، تأمّلْ: (نعيبُ ولا نُعابُ، نُصيبُ ولا نُصابُ)، ولا نرتابُ في أنَّ الفعلَ: (نصيبُ) دونَ الفعْلِ : (فريْنَا)، فهذا وقْعُه أشدّ، إذ يُوحي بأنَّ الفتى يأتي بالعجبِ في الحرْبِ، يُبالِغُ في النِّكايةِ والقتْلِ، وفي الجمْعِ (بالسُّيوفِ) تأكيدُ ذلك.

(ب)- كَمْ، يقولُ الرَّضي: (الطّويل)

وكَمْ بينَ ذي أنفٍ حميٍّ وحَامِلي مَوَارِنَ قد عُوِّدْنَ جَذْبَ الأخِشَّةِ

ويقولُ المُرْتضى على الوزنِ ذاتهِ:

وكَمْ ولدوا من لابسٍ مِيسَمَ العُلا يَبذُّ وليداً في الجهاتِ الأشَامِطَا

الرَّضي يفتخِرُ بأصولِ آلهِ، ويفتخِرُ أخوهُ بفروعهِم... ولكن أيُّ فروعٍ ؟ إنَّه الصَّبيُّ، وهو في جهاتِ الفَخْرِ والفضْلِ يغلبُ ويسْبِقُ الكبيرَ من غيرِ آلِ هاشم، وهذا ما أكَّدهُ الرَّضي لأبيهِ في قولهِ سنة (٣٧٦هـ): (الخفيف)

أنا مِنْ صَفْوةِ النَّبيِّ وغيْرِي وَلَدٌ لا يُعَدُّ في الأولادِ

وقولُهُ : (قد عُوِّدْنَ) لهُ نصيبٌ في الحُسْنِ، إذ هكذا تكونُ خلائِقُ الأشْرافِ، خلائِقُ مَنْ عادتُهم إجهَادُ البعيْرِ في الحَرْبِ، والجُوْدِ.

(ج)- لنا، هى أكثرُ الحروفِ دوراناً، ودلالةً على الفخْرِ، وكأنِّي بمناقبِ الدُّنْيا، وغُروسِ المكْرُماتِ قد حِيزتْ لآلِ هاشمٍ فقط، أقولُ هذا لأنِّي وجدتُّها تأتي في مقَامِ الفَخْرِ بـ (الدَّولةِ، والأعلامِ)، كقولِ الأوّلِ: (لنا الدَّوْلةُ..)، وقولِ الثّاني: (لنا السَّلفُ الأعْلى)، وتأتي في مقَامِ الفَخْرِ بـ (الصِّفاتِ، والجهاتِ)، بآلاتِ الحَرْبِ من مثلِ: (القنا، والجياد)، بالأعضاءِ كـ (الجبهةِ)، بالأماكنِ، كـ (الجبالِ، والحطيمِ، وزمزمٍ، والمقَامِ، والمَشَاعرِ...إلخ)، ومن ذلك قولُ الرَّضي: (البسيط)

لنا المقَامُ، وبيتُ اللهِ حُجْرتُهُ في المجْدِ ثابتةُ الأطنابِ والدُّعُمِ

وقولُ المُرْتضى: (الكامل)

ولنا الحطيمُ وزَمْزمٌ وتُراثُنا نِعْمَ التُّراثُ عن الخليلِ مَقَامُهُ

وهكذا. وقد لاحظتُ أنَّها تأتي دائماً في صَدْرِ البيتِ ما خلا قول الرَّضي: (المنسرح)

ما ضرَّنا أنَّنا بلا جِدةٍ والبيتُ والرُّكْنُ والمقامُ لنا

ويأتي بعدها (اسمٌ) منعوتٌ بنعتٍ دقيقٍ جدّاً كقولِ الرَّضي: (لنا الجبهاتُ المُسْتنيراتُ، لنا الدَّولةُ الغرَّاءُ، لنا الأُسودُ الغُلْبُ، لنا الجبالُ القُودُ، لنا الجيادُ القُبُّ، ...إلخ)، و (حرفٌ) كـ (مَنْ، وفي) في: (لنا منْ تعجُّ، لنا في النَّدى)، و (فِعْلٌ) كـ (ولنا يعْلمُ)، لكنَّها في كلِّ حالٍ تأتي عندَ الرَّضي أدقّ.

(د)- منَّا، هذا الحرفُ أقلُّ الحروفِ دوراناً في هذا البابِ، ومنهُ قولُ الرَّضي: (الوافر)

وَمِنَّا كلُّ أغْلبَ مُسْتَحِيْنٌ إن انْتَ لدْتَهُ بالذلِّ قَاءَ

وقولُ المُرْتضى السَّابق: (الرّجز)

مِنَّا النَّبيُّ والوَصِيُّ صِنْوُهُ ثمَّ البتُولُ والحُسينُ والحَسَنْ

مصابيحُ الهُدَى في بيتِ المُرْتضى، فأينَ أخوهُ من هذا ؟ وهُناكَ حُروفٌ أُخْرى تُشِيرُ إلى الفخْرِ، منها:

***- إذا، كأن يقول الرَّضي: (الطّويل)**

إذا نزلُوا بالماحلِ اسْتَنْبتُوا الرُّبى وكانُوا نِتَاجاً للْبُطُونِ العقائمِ

ويقول المُرْتضى: (البسيط)

قومٌ إذا نزلُوا داراً على عَجَلٍ كانُوا نُزولاً مع النُّعْمى على الدَّارِ

بيتُ المُرْتضى دونَ بيتِ أخيهِ ؛ لأنَّهُ قَصَرَ النُّعْمَى على دارٍ فقط، فأينَ هذا مِنْ عطَاءٍ غَمَرَ كلَّ ماحلٍ لا مَرْعى بها ولا كلأ، مِنْ فُحُولٍ احتبلتْ لها كلُّ بطْنٍ عَاقِمٍ ؟ والمُلاحظُ أنَّ جوابَ الشَّرْطِ يأتى سريعاً، وهو في الغالبِ هكذا.

***- إنْ، فهذا الرَّضي يقولُ: (الرّجز)**

إنْ نزلُوا الجوَّ أماتُوا شَمْسَهُ والأرضُ كانُوا أبداً طِلاعَهَا

ويقولُ المُرْتضى: (البسيط)

وإنْ أهبْتُ بهم في يومِ معركةٍ جاءوا ولمْ يَمْطُلوا عنها بأعْذارِ

ظاهِرُ بيتِ الرَّضي يُوحي بالأسبقيَّةِ، وهو كذلك، ولكنِّي أرى جوابَ الشَّرْطِ مُبْعدًا عن الدِّقَّةِ، إذ لا أدْرِي لماذا يُميتُونَ شمْسَ الجوِّ ؟ ألمْ يَكُنْ الإحياءُ أوْلى، كأن يقول : (أقاموا شَمْسَهُ) ؟ وأرى المَعْنى في بيتِ المُرْتضى من مُسْتهلكاتِ هذا البابِ، وأنّ (إنْ) تأتي دونَ (إذا) بشَكْلٍ ملحوظٍ ؛ رُبَّما لأنَّ الأخيرةَ تأتي لَغْواً وفَضْلاً كما يقولُ ابنُ فارس تـ (٣٩٥هـ): [١]

ووجدتُّهُما يجْمَعانِ بينهُما، كأن يقول الأوّل: (الكامل)

إنْ أُحْرِجُوا لمْ يَجْهَلُوا وإذا قَضَوْا لمْ يَقْسِطُوا وإذا عَلَوْا لمْ يَبْجَحُوا

ويقولُ الثّاني: (الطّويل)

إذا سَالمُوا زانُوا المحافلَ بَهْجةً وإنْ حاربُوا في الرَّوْعِ حشُّوا المآقِطَا

١- الصَّاحبي تح / السيّد أحمد صقر ص ١٩٣ط عيسى البابي الحلبي ١٩٧٧م.

جمعَ الرَّضي بينَ: (إنْ، وإذا)، وجمعَ أخوهُ بينَ: (إذا، وإنْ). وأحسبُ أنَّ قولَ المُرْتضى غايةٌ في الفَخْرِ بالنَّظَرِ إلى قولِ "ابن منظور" تـ (٧١١ه): وحشَّ الحربَ يحُشُّهَا حشّاً على المثلِ إذا أسْعَرهَا وهيَّجها تَشْبيهاً بإسْعَارِ النَّارِ. ومن ذلك قول " زُهَيْر بن أبي سُلْمَى" تـ (١٣ق ه): [١]

يحُشُّونَهَا بالمشْرفيَّةِ والقَنَا وفِتْيانِ صِدْقٍ لا ضِعَافٌ ولا نُكْلُ (الطّويل)

الحشُّ في بيْتِ المُرْتضى (للمآقطِ)، - وهى موضعُ القِتالِ- وفي بيْتِ زُهيرٍ (للحَرْبِ) على إطلاقها، فأين المُرْتضى من هذا ؟ وتأمّل جمالَ زُهير، فالحَرْبُ تُوقدُ بماذا ؟ تُوقدُ بـ (المشرفيّةِ، والقنا، وفتيانِ.....) فأينَ المُرْتضى من هذا مرَّةً أُخْرى ؟

(٣)- تكرارُ الضَّميرِ:-

شواهِدُ تكرارِ الضَّميرِ كثيرةٌ متنوِّعةٌ، وهى بينَ: (نحنُ ، وهُم ، وأنْتُم)، والأولى تأتي في الحديثِ عنِ: (الشَّجاعةِ) ، كأن يقول الرَّضي:(الوافر)

ونحنُ النَّازِلُونَ بكُلِّ ثَغْرٍ نُرِيقُ على جوانبِهِ الدِّماءَ

ويقولُ المُرْتضى: (الطّويل)

ونحنُ على إمَّا جِيادٍ ضَوامرٍ وإمَّا على أقْتادِ خُوصٍ دلائثِ

١- الـدِّيوان صـنعة أبـي العبّـاس ثعلـب ص ١٠٦ ط الـدَّار القوميـة للطباعـة والنَّشْـرِ ، القاهرة ١٣٨٤هـ= ١٩٦٤م.

لا أرْتابُ في أنَّ بيتَ الرَّضي أسبقُ ؛ لقولهِ: (بكُلِّ ثَغْرٍ)، إذ يُوحي بأنَّ شجاعةَ آلَ هاشمٍ تطولُ كلَّ شيءٍ، وتخوضُ دماءَ أفئدةِ الأعَادي وكأنَّهُم مُقْسِمونَ على ذلك. وفي الفعلِ: (نُريقُ) حركةٌ مُتَّصِلةٌ تُوحي بانْقِضاضٍ كانْقِضاضِ الشِّهابِ للرَّجْمِ، وفي جُمْلةِ: (على جوانبهِ الدِّماء) صُورةٌ مُؤثِّرةٌ يُحْرِمُ منها بيتُ المُرْتضى الّذي أراهُ تأخَّرَ أيضاً عن بيْتِ "ابنِ التَّعاويذي": (الكامل)

واسْتوطَنُوا الجُرْدَ السَّوابقَ ضُمَّراً قُبَّ البُطونِ سَواميَ الأعرافِ

فالفعلُ: (واستوطنوا) يدلُّنا على مهَارةٍ فائقةٍ ، إذ يُوحي بأنَّ ظُهُورَ الجُرْدِ مأْوى وسكنٌ مأنُوسٌ آهِلٌ. وقد لاحظتُ حِرْصَ الرَّضي على أنْ تأتي الجُمْلةُ الواقعةُ بعد الضَّميرِ مُتساويةَ الإيقاعِ، مُتساويةَ الحركاتِ والسَّكناتِ، تأمّل: (النَّازِلُونِ بكُلِّ ثَغْرٍ، الخائِضونَ بكُلِّ هَوْلٍ، اللابِسونَ لِكُلِّ مِجْدٍ)، فكلُّ ما هُنالكَ أنّه أبدلَ (اللامَ) بـ (الباءِ) في: (بكُلِّ، ولِكُلِّ)، وهو غيرُ لازمٍ.

وتأتي في الحديثِ عنِ (التَّباهي) ،كأن يقول الرَّضي: (الطّويل)

ونحنُ أعَزُّ النَّاسِ شَرْقاً ومَغْرباً وأكْرَمُ أبْصَارٍ على الأرْضِ تَطْرِفُ

ويقولُ أخوهُ: (الرَّجز)

نحنُ أُناسٌ ما لنا محلَّةٌ إلا قِلالُ الرَّاسِياتِ والقُنَنْ

ذِرْوةُ الشَّرفِ العَالي لآلِ هاشمٍ بيِّنةٌ في البيتينِ، ولكنِّي أرى بيتَ الرَّضي أعْمقَ في الفَخْرِ وأجودَ بشطْرِهِ الثّاني، فهذا المعْنَى عزيزٌ في هذا البابِ، بخلافِ الحديثِ عنِ المكانةِ العاليةِ، والشَّرفِ الفرْدِ، إذ أحسبهُ كعينِ الدَّهْرِ تلْمَحُ وتمْرَحُ في هذا البابِ من كثرتهِ. وقريبٌ من هذا مجيءُ هذا

الضَّمير عند الرَّضي في الحديثِ عن (المصائبِ) التي أحاطَتْ بآلِ البيتِ، وعن (الجُودِ والكرمِ) عند المُرْتضى، فهذا المَعْنى فائحٌ مُتأرِّجٌ، وذاكَ نادرٌ شحيحٌ.

والفَخْرُ بـ (هُمْ، وأنْتُم) كالفخْرِ بـ (نحنُ) يبحثُ في مَعَاني (الشَّجاعةِ، والكرمِ، والمحبَّةِ) بَحْثاً أوضحَ من سَنَا الصُّبْحِ ،كأن يقول الأوّل سنة (٥٣٥٣): (الطّويل)

هُمُ اسْتَفْرغُوا ما كانَ في البيضِ والقَنَا فلمْ يبْقَ إلا ذُو اعْوجاجٍ وَذُو كَسْرِ

ويقولُ الثّاني: (البسيط)

فأنتمُ في قلوبِ النَّاسِ كلّهمُ السَّمْتُ نَقْصِدُهُ والحبْلُ نَعْتَلِقُ

بيتُ الرَّضي لا يخْلُو من الجمالِ ، إلا أنَّ وُدِّي مُقيمٌ أبدَ الزَّمانِ لبيْتِ أخيهِ، فآلُ أحمدَ لا يسكُنونَ البيوتَ، وإنَّما يَسْكُنونَ (القلوبَ)، وتأمّل قلوبَ مَنْ ؟ إنّها قلوبُ كُلِّ النَّاسِ، المُوالي والمُعَادي. وتأمّل جمالَ الشَّطْرِ الثّاني، فرهطُ النبيِّ هم سُفُنُ النّجاةِ، والعُرْوةُ الوثْقَى ، هُم حبْلُ اللهِ المُنْجي للقاصي والدَّاني، للخائفِ والرَّاجي، فأين الرَّضي من هذا ؟ ولعلَّكَ لاحظْتَ الدَّورَ الفاعلَ (لأنْتُم) في صَدْرِ البيتِ، إذ جاءَ للدِّلالةِ على أنَّ هذا مِنْ خَصَائصِ أُمناءِ اللهِ على الأرضِ، وأهْلِ الشَّفاعةِ في الحَشْرِ.

والمُلاحظُ أنَّ (الضَّمائرَ) أتت كـ (الحُروفِ) دائماً في صَدْرِ البيتِ، وتُسْبقُ بـ (الواوِ، واللامِ، والفَاءِ)، ويأتي بعدها (اسمٌ) يأتي نكرةً كـ (نحنُ أُناسٌ، نحنُ قومٌ)، ومعرفةً كـ (ونحنُ النّازلونَ، ونحنُ الخائضونَ)، وفعلٌ يأتي ماضياً كـ (هُمْ أوْسعُوا)، ومضارعاً كـ (وهُمْ يُنْفِدونَ)، وحرفٌ لازمٌ هو (في)، ومضافٌ ومضاف إليهِ كـ (وهُمْ غُيوثُ صنائعٍ، وهُمْ صُدورُ محافلٍ).

وإنْ أنْسَ لا أنْسى بعضَ الكلماتِ المُزاحمةِ لكُلِّ ما سبق، كلماتٌ تمشَّتْ بها سحائبُ الفَخْرِ من مثْلِ: (المانعونَ الضَّيمَ، الغالِبُونَ على ندى، السَّابقُونَ إلى عُلا)، (والطَّاعنينَ، والضَّاربينَ، والمُطْعمينَ، والرَّافعينَ...إلخ)، إنَّها كلماتٌ مُشْبعةُ الغايةِ، محصودةُ الفخْرِ.

ومن الطَّريفِ أنْ تتلاقى، كقولِ الأوَّلِ سنة (٣٩١هـ): (الرَّجز)

والزَّاحمينَ بالقَنَا أعْدَاءَهَا على الثَّنايا منَعُوا طلّاعَهَا

وقولِ الثّاني: (الكامل)

والزَّاحمينَ ترفُّعاً وتنزُّهاً للطالعاتِ دُجىً عن الأبراجِ

آلُ الشَّريفينِ يُزاحِمونَ أعْداءَ قُريشٍ.. يخيطُونَ كلَّ خَلَلٍ أو خَرْقٍ هنالكَ في عينِ الرَّضي، وهُمْ عندَ المُرْتضى يُزاحِمونَ طالعاتِ دُجى الأفلاكِ، فأينَ الأوَّلُ من هذا ؟

(٤)- تكرارُ الفِعْلِ:-

يُعدُّ الفعْلُ (نَمَاني) من أكثرِ الأفعالِ دلالةً على التَّفاخُرِ والشَّرفِ الباقي لبني هاشمٍ، فهاكَ قولُ الرَّضي: (الوافر)

نَمَاني كُلُّ مُمْتَعِضٍ أبيٍّ جَرَى طَلْقَ الجَمُوحِ إلى المَعَالي

وقولُ المُرْتضى: (الكامل)

أُنْمَى إلى بيْتِ العُلا من هاشمٍ من ذلكَ الأصْلِ الأشمِّ الباسقِ

الأوَّلُ أتى بالفعْلِ في (الماضي)، وأتى بهِ الثَّاني في (المُسْتقبلِ)، وهو يُوحي بكونهما في العُلا آباءً وبيوتاً، بيوتَ السِّيادةِ، وآباءَ الدَّهْرِ، أوّلُهم وآخرهُم لا يُعابُ.

ولندع هذا لتأمُّلِ هذهِ الأفْعَالِ الحاليةِ بحُسْنها، الزَّاهيةِ على وَشْي الرِّياضِ: (بنينا، حُزْنا ، طُلْنا، أخَذْنا، ورِثْنَا، تفرَّعُوا، تقَّارعُوا...إلخ)، لا شكَّ أنَّ غيرها كَحُفالةِ الطَّعامِ ؛ لدلالتها على شيمٍ مَخْلوقةٍ من سُؤْدِدٍ ، شيمٍ مثل الصَّباحِ تُشِيرُ لآلِ البيتِ، تَفْخرُ بهم وتَزْدَانُ. والمُلاحظُ أنّها أتتْ عند الرَّضي بصورةٍ أكبر، وأدلّ على الفَخْرِ، كأن يقول سنة (٥٣٩٠ه): (الهزج)

مَلَكْنا مَقْطَعَ الرِّزْقِ فأفْقَرنا ، وأغْنينا

وحُزْنا طاعةَ الدَّهْرِ فأغْضبنا ، وأرْضَينا

فأينَ المُرْتضى من هذا حين يقولُ ؟ (الطّويل)

سبقناكُمُ عَفْواً ولم تلحَقُوا بنا على جُهْدِ مجهُودٍ وَلَهْثَةِ لاهِثِ

الفعلُ (سَبقْنا) يدلُّ على العِفَّةِ في الفَخْرِ، وأفعالُ الرَّضي مُحلِّقةٌ في آفاقِ التَّعالي، تسبحُ في أوْديةِ هذا البابِ المُورقِ بمأْثُورِ الفضْلِ البَاقي في الأنامِ إلى يومِ القيامةِ لآلِ هاشمٍ.

(ب)- الفَخْرُ بالنَّفْسِ:-

يُشكِّلُ ضميرُ المُتكلِّمِ (أنا) مِحْوراً ارتكازيَّاً من محَاورِ هذا البابِ، ويَقْترِنُ بتحوُّلاتٍ دلاليَّةٍ مُتباينةٍ هى:

(١)- دلالةُ التَّباهي:

في هذهِ الدِّلالةِ تأتي (الأنا) بشَكْلٍ مُكثَّفٍ ؛ للتأكيدِ على تعاظُمِ النَّفْسِ، وحضُورها الطَّاغي الذي تجاوزَ الإثباتَ المُجرَّدَ إلى اليقينِ القاطعِ، والإقرارِ المؤكّدِ الجازمِ كقولِ الأوّلِ: (الطّويل)

أما أنا موزونٌ بكلِّ خليفةٍ أرى أنَفَاً مِنْ أنْ يكونَ خليفتى

وقولِ الثّاني: (الكامل)

وأنا الذي أعْييتُ قبلكَ منْ رَسَتْ أطْوادُهُ واسْتشرفَتْ أعْلامُهُ

حديثُ الفَخْرِ في هذينِ البيتينِ مُوجَّهٌ للأعْدَاءِ، وأراهُ مُتكافئَاً فائقاً.

والمُلاحظُ أنَّ هذا الضَّميرَ يأتي في سيَاقِ الحديثِ عن التَّفاخُرِ بـ (الأُصُولِ والفُرُوعِ) عندَ الرَّضي، وبـ (الأُصُولِ) فقط عندَ المُرْتضى، كأن يقول الأوّل: (الوافر)

أنا ابنُ الفَرْعِ مِنْ أعْلى نِزَارٍ ومَنْ يَزِنُ الأسافِلَ بالأعالى ؟

ويقول: (المتقارب)

أنا ابنُ الأناجبِ مِنْ هاشمٍ إذا لمْ يَكُنْ نُجُبٌ مِنْ نُجُبْ

ويقولُ الثّاني: (الكامل)

وأنا الذى اسْتوطنْتُ ذِرْوةَ هاشمٍ وحللْتُ مِنْ عَدْنانَ في الأثباجِ

لا شكَّ أنَّ (الأنا) في هذهِ الأبياتِ دالَّةٌ على التَّباهي، وأنَّ الفرحةَ بمن هُم مُعْرقةٌ أنسابُهُم تَزْهُو وتزْدَهِرُ، فرحةٌ مُمْتدَّةٌ لا تَنْتهي، تعتادُ الشَّريفينِ ؛ لانتمائهما لهؤلاءِ العرانينِ الذينَ لا تُخْفضُ لهُم رايةٌ. ومن عجائبِ الرَّضي في هذا البابِ قولهُ وقد قالَ ما سبق: (الطّويل)

أنا السَّيْفُ إلا أنَّني في مَعَاشرٍ أرى كلَّ سيفٍ فيهمُ لا يُجرَّبُ

أرى كلّ سيفٍ فيهم....! هذا في ظنِّي دافعُهُ (الغضبُ) الّذي يَعْتري الإنسانَ في موقفٍ ما ثمّ ينكشفُ انكشافَ الصُّبْحِ بعدَ الغَسَقْ.

وأتى في سيَاقِ الحديثِ عن الفخْرِ بـ (النَّفْسِ) فخْرَاً مُؤنَّقاً، يفُوتُ العبيرَ طِيْباً ونَشْراً، كقولِ الرَّضي: (الرّجز)

أنا الغُلامُ القُرشِيُّ مُنْجِباً ما وَلَدَا

وقولِ المُرْتضى: (الكامل)

وأنا الّذي علِمتْ نِزارٌ كلُّهَا مِنْ بيتها في رأْسِ أرْعَنَ شَاهِقِ

كلاهُما رائِعٌ، و (الأنا) طاغيةٌ، إذ يُوحي الضَّميرُ أنَّ بطُونَ أُمَّهاتِ بني هاشمٍ لم تُنْجِبْ سواهُما، وأنَّ دونَهُما كلَّ عزيزٍ طاهرٍ من كلِّ عيبٍ. وفي إطارِ الفَخْرِ بالنَّفْسِ أيضاً تأتي (الأنا) للدِّلالةِ على الآتي:

(أ)- الفخْرُ بالفصاحةِ، كأن يقول الرَّضي: (البسيط)

أنا زُهيرٌ، فمنْ لي في زَمَانكَ ذا ببعْضِ ما افْتَرقتْ عنهُ يدا هَرِمِ

ويقولُ المُرْتضى: (الكامل)

وأنا الفصيحُ فإنْ شكوتُ إليكُمُ جَنَفَ الغرامِ فإنَّني اللَّجْلاجُ

كلاهُما يفتخرُ بحُسْنِ بيانهِ، وذرابةِ لسانهِ، وإنْ كنتُ أحْسَبُ الأخيرَ أبْطلَ كلَّ فَخْرٍ، ولم يُبْقِ أوَّلٌ لأخيرِ ؛ لأنَّ قولهُ: (وأنا الفصيحُ) يُوحي بأنَّهُ ربُّ هذا الميدان.

(ب)- الفخْرُ بالشّجاعةِ، كقولِ الأوّلِ: (الطّويل)

أنا الأسدُ الماضي على كُلِّ فَعْلةٍ تُمشِّي شِفَارَ البيضِ فوْقَ الجَمَاجِمِ

وقولِ الثّاني: (الكامل)

وأنا الّذي مازِلْتُ من جَنَفِ الرَّدى رُكْناً لأبناءِ الحِذَارِ وثيقا

أقولُ للرَّضي حللْتَ في منْبتِ رَوْضِ الفَخْرِ، ومَلكْتَ أزْورته وخطيرَه. ورأيتُ في الأبياتِ الأُخْرى حالةً من حالاتِ التَّباهِي المُوفي الغايةَ والقَصْدَ، تأمّل معي: (أنا الحُسامُ، أنا الرَّجُلُ الألْوى، أنا القائلُ المرْمُوقُ، أنا المُورِدُ الشَّقْراءَ، وأنا الجرازُ، ما أنا إلا النَّصْلُ، وما أنا إلا اللَّيثُ...إلخ)، أراكَ تتَّفقُ معي في أنَّ (الأنا) تبعثُ على الإجلالِ، (أنا) مُسْتفحلةٌ ، مُترفِّعةٌ يكادُ أنْفُها يُلامِسُ السَّماءَ ، (أنا) قضى بالسَّعْدِ طالِعُهَا.

(٢)- دلالةُ التَّحدِّي، هذهِ الدِّلالةُ تبدو في قولِ الرَّضي سنة (٣٧٨هـ): (الكامل)

أنا أكْلةُ المُغْتابِ إنْ لمْ أجْنِهَا شَعْواءَ يَحْضُرها العُقابُ الغائِبُ

وفي قولِ أخيهِ على الوزنِ ذاتهِ :

وأنا الغبينُ لِئَنْ رضيتُ بأنْ تُرى فوقي العيوبُ وتحْتَىَ الهِمْلاجُ

ذُؤْبانُ الخُطُوبِ تنوشُ الرَّضي وعزْمُهُ ماضٍ، ورماحهُ أراقِمٌ وسوالِبٌ... فلماذا يَرْضى بالهَوانِ ؟ والمُرْتضى كلُّ الفضائلِ في يديهِ، يلْمعُ كوكبهُ، وهو كوكبٌ وهَّاجٌ...فلماذا يَسْتكينُ للغبْنِ ؟ لمْ يَغِبْ عنهُما أنَّ كسْبَ العُلا مَنْهَجٌ وطريقٌ، وأنَّ مَذْهبهُما التَّقحُّمُ بالقنا، لمْ يَغِبْ عنْهُما أنَّ مجاهلَ الفلواتِ أطيبُ منزلٍ، وأنَّهُما وُلِدَا للمَعَالي، ومن ثمَّ لا يجوزُ، ولا يُقْبلُ منهما الرُّضوخُ لِمُلْتحفِ النَّقْصِ، ولا لدلالِ البهْكناتِ، أرأيتَ قولَ الرَّضي: (الكامل)

أنا منْ عَلِمْتُنَّ الغّدَاةَ نقيَّةً أُزُرِي وضامنةَ العفافِ مَآزِرِى

وقولَ المُرْتضى على الوزنِ ذاتهِ مرَّةً أُخْرى:

وأنا الغبينُ لأنْ منحْتُكَ طائِعَاً قلبي وفيكَ كما عَلِمْتُ متَالفِى

وأحسبُ قولَ المُرْتضى: (أنا الغَبينُ) دونَ قولِ أخيهِ: (أنا أكْلَةُ المُغْتابِ)، فهذا أبلغُ في الدِّلالةِ السَّابقةِ. والمُلاحظةُ العامَّةُ هُنا أنَّ هذا الضَّميرَ يُسْبقُ دائماً بـ (الواوِ) عندَ المُرْتضى، ويُسْبقُ بها وبـ (ما) عندَ أخيهِ. وفي حديْثِ الفَخْرِ بـ (النَّفْسِ) نُطالعُ أيضاً الآتي:

(أ)- الفخْرُ بالعُلى، فهذا الرَّضي يقولُ : (م الكامل)

وأظنُّ نَفْسي سوفَ تَحْـــ ـمِلُني على الأمْرِ الأشدِّ

حتّى أُرَى مُتملِّكاً شَرْقَ العُلى والغرْبَ وحْدِى

ويقولُ أخوهُ: (البسيط)

حسْبُ المعَالي بأنِّي نِلْتُ غايتها وأنَّني زِيْرُهَا مِنْ سائِرِ الأُممِ

الرَّضي يبحثُ عن تملُّكِ (المَعَالي)، والمُرْتضى نالَ غايتَهَا، فأينَ الأوَّلُ من هذا ؟ . ومثلُ ذلك قولهُ: (الطّويل)

وأمَّلْتُ أنْ أجْري خَفيفاً إلى العُلى إذا شِئْتُمُ أنْ تلحقُوا فتخفَّفُوا

أين هذا من قولِ أخيهِ على الوزنِ ذاتهِ ؟

ولمَّا جروْا يَرْجُونَ سَبْقي إلى العُلا مضيْتُ ولمَّا يلْحَقُوا بترابى

لا شكَّ أنَّ قولَ الرَّضي: (وأظنُّ نَفْسي، وأمَّلتُ) قد ذهبَ بجمَالِ الفَخْرِ النَّادرِ المُسْتحسنِ في قولهِ: (الوافر)

لئِنْ نِلْتُ الكواكِبَ في عُلاهَا لقد أبْقَيْتُ فَضْلاً من مَنَالى

هذا ولا ريب يفوقُ المُرْتضى. ورأيتُ إدْراكَ (العُلى) دافعاً لهُما إلى:

***- التَّلاقي في (المَعَاني) في قولِ الأوّلِ: (الكامل)**

إمَّا أُقِيْمُ صُدُورَ مَجْدِي بالقَنَا ويَقَرُّ عَضْبي أوْ تقومُ منَابِبُ

وقولهِ: (الوافر)

فإمَّا أمْلأُ الدُّنْيا عَلاءً وإمَّا أمْلأُ الدُّنْيا مُصَابا

وفي قولِ الثَّاني: (السّريع)

سأرْكَبُ الهَوْلَ فإمَّا على شامخةٍ أوْ أكْرَم الموْتَةِ

وقولهِ: (البسيط)

يا نفْسُ إمَّا مَقِيْلٌ رأْسَ شاهقةٍ أوْ قَعْصةٌ بالعَوالي فوقَ جَعْجاعِ

غايةُ الأخوينِ واحدةٌ، والمَعْنى كذلك، فكلاهُما يبحثُ عن عُلاً يُعْجزُ النَّاسَ حلُّهُ، عُلاً يفوتُ الأبْعَدينِ، ويطولُ الأطْولينِ. ولا أرْتابُ في كونهما جنياهُ من غُصُونِ أبيهما اللَّذينِ ارْتبطا بهِ ارْتباطَ الجفْنِ بالعينِ، وقد رأياهُ يقومُ بأعمالِ النَّقابةِ، وإمارةِ الحجِّ، والنَّظَرِ في المظالمِ...إلخ، فاحتذيا بهِ، ومن ثمَّ انعكسَ ذلك على سلوكهما، ونزوعهما في الحياةِ، فتباهى الأوّلُ بقولهِ: (المتقارب)

فأيُّ مُنىً لمْ يَسُمْهَا نَوالي وأيُّ عُلىً لمْ يطأْهَا اعْتِزَامى

وتباهى الثَّاني: (الوافر)

أجلْ عينيكَ في مَجْدي تجدني وَلَجْتُ إلى العُلا من كلِّ بابِ

كلاهُما مُتوطِّنٌ عُنُقَ العُلا، ولم لا ومَنْزعُ النَّفْسِ واحدٌ ، والثَّدْىُ كذلك .

***- التَّلاقي في (التَّراكيبِ) ، فتأمَّل قولَ الرَّضي: (الطّويل)**

تُطالِبُني نَفْسي بِكُلِّ عظيمةٍ أرَى دُونَهَا جَاري دَمٍ يتصبَّبُ

وقولَ أخيهِ على الوزنِ ذاتهِ:

تُطالِبُني نَفْسي بما غيرُهُ الرِّضا وأيُّ الرِّجالِ نَفْسُهُ لا تُطالِبُهْ ؟

نَفْسُ الرَّضي نَفْسٌ نزَّاعةٌ، تُلْقِي بهِ في هَوْلِ كلِّ غَمْرةٍ محفوفةٍ بالقنا طاغيةٍ، غَمْرةٍ يتَّقيها الرِّجالُ ؛ لأنَّها تقدُّ كلَّ صليفٍ، فأينَ المُرْتضى من هذا ؟ ومن ذلك أيضاً قولُ الرَّضي: (الطّويل)

أُرِيدُ من الأيَّامِ كُلَّ عظيمةٍ ومَا بينَ أضْلاعِي لها أسدٌ وَرْدُ

وقولُ المُرْتضى : (الكامل)

أُرِيدُ من العلْياءِ ما لا تنالهُ السـ ـُيوفُ المواضي والوشيجُ المُقوَّمُ

الوزنُ واحدٌ، والمعْنى مُتَقارِبٌ. وأحْسبُ انْصِرافَ المُرْتضى للعلمِ والدَّرْسِ، والْبُعْدِ عن بهْرجةِ السُّلْطةِ، ومقاماتِ السِّياسةِ لم يُغْنيهِ عن البحْثِ عن (المَعَالي)، فأراهُ ركبَ صَهْوةَ الخِطَارِ عقيداً لبناتها كأخيهِ، كتفاً بكتفٍ، وذِرَاعَاً بذِرَاعٍ، إذ كيفَ يكونُ دونَ الرَّضي وهو القائِلُ ؟

ولي فوق أسْماكِ المجرَّةِ منزلٌ وفي موْقِفِ الزُّهْرِ الكواكبِ موْقِفُ (الطّويل)

والقائِلُ ؟ (الكامل)

فبدارِ أنْدِيةِ الفَخَارِ إقامتي وعلى الفضائلِ مَرْبَعِي ومَصِيْفِي

وغير ذلك كثيرٌ. ولسْتُ راكباً شطَطَاً حينَ أقولُ إنَ بحْثَ الرَّضي عن (المَعَالي) رُبَّما أفْضَى للا شيءٍ ؛ لقولهِ لأبيهِ سنة (٣٧٩هـ): (الكامل)

ما لي قنِعْتُ كأنَّ ليس مُهنَّدِي بيدي ولا جدِّي النَّبيُّ المُرْسَلُ ؟

إذ أراهُ يُؤنِّبُ نَفْسَهُ عن التَّوقُّفِ عن (المعَالي) التي قاتلَ لِغَرْسِهَا في عقبهِ، إذ قال: (السّريع)

ما أنا للعلياءِ إنْ لمْ يكُنْ مِنْ ولَدِي ما كانَ مِنْ والِدِي

ولم أجِدْ مثلَ ذلك عندَ أخيهِ.

(ب)- الفَخْرُ بالشَّجاعةِ، فهذا الرَّضي يقولُ:

بينَ المواضِي والقَنَا تجدْني أمامَ جيشٍ كجَنُوبِ الرَّعْنِ [1]

والنَّصْلُ عيني والسِّنانُ أُذْنِي وأُمِّيَ الدَّرْعُ ولمْ تَلِدْنى

ويقولُ المُرْتضى:

والسُّمرُ تتركُ في كفِّي نحورَهُمُ مقْسومةً بينَ مَعْضوضٍ ومَنْهُوسِ

والبيضُ تُسْمِعُ في هَامِ الرِّجالِ وفي أعْضَائهِمْ مثلَ أصْوَاتِ النَّواقِيْسِ

حديثُ الرَّضي عن الفَخْرِ بشجاعتهِ جميلٌ لا شكَّ في هذا، ولكنَّهُ في تَقْديري لا يَرْتقي إلى حديثِ أخيهِ ؛ لما في هذا من الحركةِ الدَّالةِ على الفعْلِ المُوحي بالضَّرْبِ والطَّعْنِ ينْتَهِبُ الرِّجالَ. ولنا أن نتأمَّلَ جمالَ قولهِ: (والسُّمرُ تتركُ، والبيضُ تُسْمِعُ)، فالرِّماحُ تتحرَّكُ بخفَّةٍ ورشاقةٍ ، يُمْنةً ويُسْرةً، تعْلُو وتهْبِطُ في ماذا ؟ في : النُّحورِ، والهامِ، والأعْضاءِ، وكأنَّنا بالمُرْتضى قد جرَّدَ لهؤلاءِ الرِّجالِ عَزْماً مُؤيَّداً، وسلَّطَ عليهم يدَ القهْرِ، يداً لها صَلْصلةٌ وجَلْجلةٌ اسْودَّ لها النَّهارُ. وما أحْلى الصُّورةُ في قولهِ: (بينَ مَعْضُوضٍ ومَنْهُوسِ)، فأطْرَافُ الأسنانِ تَقْبضُ على اللَّحْمِ، وتنْتُرهُ هُنا

---

١ ـ الرَّعْنُ: الأنْفُ العظيمُ من الجبلِ تَراهُ مُتقدِّماً، ومنهُ قِيلَ للجيشِ العظيمِ أرْعَنُ.

وهُناكَ مُفرَّقاً مُمزَّقاً بلا رحمةٍ حتّى باتَ الكُلُّ قتيلاً يتظلَّم. ومن ذلك أيضاً قولُ الأوّل:

إذا اخْتَارتْ بَنُو قيسٍ نِزَالي رجعْتُ وللرّدى فيها الخِيَارُ

وقولُ الثّاني:

جاءوا صِحَاحاً بلا جُرْحٍ ولا أثرٍ ثُمَّ انْثَنَوْا بينَ مَضْروبٍ ومَدْعُوسِ

الرَّدى في بيتِ الرَّضي مَنْ يختارُ، ولا خيارَ لهُ في بيتِ أخيهِ، فأين الرَّضي من هذا ؟ وأحسبهُ أتى بالفاعلِ في (الخِيار) ؛ لمُجانسةِ الفعْلِ (اخْتَارتْ). ونراهُ قَصَرَ حديثَ شجاعتهِ على (بني قيسٍ)، والمُرْتضى أطلقهُ في قولهِ: (جاءوا)، وقال الرَّضي: (إذا اخْتَارتْ بنُو قيسٍ)، فإذا لم تختارُ فمن يكونُ ؟ وأحسبُ حديثَ الفخْرِ عن (الشَّجاعةِ) لا يكْتَمِلُ إلا بالحديثِ عن (آلاتها)، إذ هى:

***- الوغى، كأن يقولُ الرَّضي:**

لَبِسْتُ <u>الوغى</u> قبلَ ثوْبِ الغُبارِ وقارَعْتُ بالنَّصْلِ قبلَ الغِرَارِ

ويقول المُرْتضى:

وأضْرِبُ منكُمْ للرءوسِ لدى <u>وغىً</u> وأوْهِبُ منكُمْ للهِجانِ الرَّواغثِ

أين الفعلان: (وأضْرِبُ، وأوْهِبُ) من الفعلينِ: (لَبِسْتُ، وقارعْتُ) ؟ وهذينِ في الماضي وهذا أدقّ. وأرى الشَّطْرَ الأوَّلَ في بيتِ المُرْتضى أجود ؛ لقولهِ في الثَّاني: (الرَّواغثِ)، أيْ الرَّواضِع، فهذا ليسَ من جيِّدِ الهِبَةِ.

***- الدُّجى، إذ قال الأوَّلُ:**

وأشْتَمِلُ الدُّجى والرَّكْبُ يمضي مَضَاءَ السَّيْفِ شذَّ عنِ القِرَابِ

وقالَ الثّاني:

وأدَّرِعُ الدُّجى واللَّيلُ خافٍ وأرْكبُ غاربَ الخطْبِ الجَلالِ

الفعلان: (وأشْتَمِلُ، وأدَّرِعُ) في المُسْتقبلِ، وفي اعتقادي أنَّ الأخيرَ أقْوى في التَّصْويرِ والتَّعْبيرِ، ناهيكَ عن الفعْلِ (وأرْكبُ) الّذي أعْطَى للبيْتِ دِقَّةً ملحوظةً.

***- الرُّمْحُ، فهذا الرَّضي يقولُ:**

ويَعْرِفُني العدوُّ بِوقْعِ رُمْحي إذا ما الوجْهُ مُوِّهَ بالسُّهُومِ

ويقولُ المُرْتضى:

وإذا تَشَاجرتِ الرِّماحُ رأيْتَني رَحْبَ الخُطا في المأْزقِ المُتضايقِ

المُرْتضى أسْبقُ ؛ لأنَّ بطْنَ الشِّعْرِ لا يَخْلُو من مَعْنى بيتِ أخيهِ.
ووجدتُّ أيضاً عند الأوّل (النَّبْل)، وعند الثَّاني (الغُبار)، إذ قالَ الأوّلُ:

فما سَهْمي السَّديدُ منَ النَّوابي ولا باعي الطَّويلُ منَ الضِّعافِ

وقالَ الثّاني:

سَلْ عنْ ضرابي وعنْ طَعْني لَدَى رِهجٍ نحْرَ الكميِّ وهاماتِ الكرادِيسِ

(فما...وسَلْ)، هل لاحظْتَ الفرقَ بينهُما ؟ الأوّلُ يقولُ بأنَّ شجاعةَ الرَّضي لا تَخْفى، ويقولُ الثّاني بأنَّها خافيةٌ عندَ أخيهِ. كذلك لا تَخْفى دِقَّةُ الرَّضي في نعْتِ السَّهْمِ بـ (السَّديدِ)، وكأنَّنا بهِ يجرُّ أذْيالَ البُطُولةِ، والبيضُ في أيمانهِ تتبسَّم.

وإذا كانا قد تقاسما حديثَ الفخْرِ عنِ (المَعَالي)، فها هو ذا حديثُ الفخْرِ عنِ (الشَّجاعةِ) أسْبقُ وأجْودُ عندَ الرَّضي ، أقولُ هذا ليس من خلالِ ما مضى، وإنَّما من خلالِ ما بينَ يدي من أبياتٍ اقْتطفْتُها ؛ لأحْكُمَ بينَهُما، فكان الحُكْمُ للرَّضي الّذي أفْرطَ في الحديثِ عنِ: (الصَّوارمِ، والعَوالي، والقَنَا، والصُّدورِ، والذَّوابلِ، والمَعَاقلِ.... إلخ)، ممَّا يُوحي بأنَّهُ البطلُ الفذّ، وتأتي غالباً في موضعِ (الفاعلِ) كأن يقول سنة (٣٧٤هـ):

أما عانَقَتْني صُدُورُ السُّيوفِ أما قبَّلَتْني نُصُولُ السِّهامِ

ودَعْ عنكَ حديثَ السِّهامِ والسُّيوفِ ؛ لترى حديثَ (الأفعال)، إذ هى بينَ المُضارع كـ : (سأدِّرعُ)، والماضي كـ: (صافحْتُ، سموتُ، كفاني، طارحاً، راكباً)، والأمر في: (ألِكْني) إلى غيرِ ذلكَ من أفْعالٍ عريقةٍ في هذا البابِ. وأجملُ ما عَثَرتْ عليهِ يدي أن رأيتُ الأوَّلَ يتَّخِذُ من (السَّيفِ) نديماً يدفعُ عنهُ الهُمومَ والمواجعَ حين قال:

نَدِيمي على شُرْبِ الهُمُومِ مُهنَّدٌ إذا شاءَ أصْغَى الهَمَّ دُونَ مَقِيلِى

ويتَّخذُ الثّاني من (المَهَا) نديماً ؛ للسببِ ذاتهِ، إذ قال:

وأنِّي لبسْتُ ثيابَ العراءِ ولا مُؤْنِسٌ لىَ غيرُ المَهَا

ولكن أيُّ عَراءٍ يتحدَّثُ عنهُ المُرْتضى ؟ ليتني أعلَمُ. ولا شكَّ أنَّ جمالَ بيتِ أخيهِ في الفخْرِ (أصْغَى) إذْ هو بمعنى (أمالَ). ووجدتُّ أيضاً أحاديثاً فخريَّةً أُخْرى جاءتْ دونَ هذهِ، هاكَ هى:

***- الفخْرُ بالفَضْلِ، كأن يقول الأوّلُ:**

وحديثُ فَضْلي ضَارِبٌ بِعُرُوقهِ في الأرْضِ يَنْقُلُهُ المطِيُّ البُزَّلُ

ويقولُ الثَّاني:

ما ضرَّني أنْ ليسَ فوقَ مفَارِقي تاجٌ ومِنْ فَضْلي عليَّ التَّاجُ

أحسبُ أنِّي ظلمْتُ بيتَ الرَّضي حينَ وضعْتُهُ في مُوازنةٍ مع بيْتِ أخيهِ. وقال الأوَّلُ:

أبرُّ على الأنْواءِ فَضْلي ونائلي وطالَ على الجوْزاءِ قَدْري ومَحْتِدِى

وقال الثّاني:

فبدارِ أنْدِيةِ الفَخَارِ إقامتي وعلى الفَضَائلِ مَرْبعي ومصيفى

هذا إقامتهُ (بدارِ أنْدِيةِ المُلوكِ)، وذاك إقامتهُ (فوقَ الجَوْزاء) فأينَ الأوَّلُ من هذا ؟ ولا شكَّ أنَّ قولَ المُرْتضى: (مَرْبعي ومصيفي) دونَ قولِ أخيهِ: (أبرُّ)، فهذا يُوحي بأنَّ الفضْلَ فائضٌ زائدٌ، وفائضٌ زائدٌ على ماذا ؟ إنَّها (الأنْواءُ)، وذاك يُوحي بأنَّ الفضْلَ مُقيمٌ ثابتٌ، إذ المرْبعُ: الموضعُ الّذي يُنْزلُ فيهِ أيَّامَ الرَّبيعِ، والمصيفُ معروفٌ. ومن ذلك قولُ ابن التَّعاويذي:

يا منْ لهُ أنْعُمٌ مُكرَّرةٌ لنا مصيفٌ منها ومُرْتَبَعُ

وعُدْ إلى حديثِ الفضْلِ عندَ الرَّضي تراهُ: (ضارباً بعروقهِ في الأرْضِ)، و (أبرُّ على الأنْواءِ)، وعلى آلهِ أيضاً، تأمّل:

ومَا فَضْلِي على قَوْمي بخافٍ كما فَضْلِ القَرِيعِ على الإفَالِ

هذا فَخْرٌ أمْ منّ ؟ وأحسبهُ كقولهِ مُتباهياً، مَحْفُوظَ العُلى:

كَفَاني أنَّني حَرْبٌ لقوْمِي وذلِكَ لي من الضرّاءِ كافِ

الرَّضي وحْدَهُ حَمُولٌ لأعْباءِ قومهِ، عِصْمتُهم، هناءُهُمْ، يَرْعاهُمْ وهُمْ رُقُودٌ في المضَاجعِ نُوَّمٌ.

***- الفخْرُ بالهِمَّةِ، كأن يقول :**

إذا هَمَمْتُ ففتِّشْ عن شَبَا هِمَمِي تجدْهُ في مُهَجاتِ الأنْجُمِ الشُّهُبِ

ويقولُ المُرْتضى:

وكيف أحلُّ بدارِ الصَّغارِ ولي هِمَّةٌ تَزْدَرِي بالذُّرا ؟

أرى مَواطِرَ حُسْنِ بيتِ المُرْتضى عمَّتْ وفاضَتْ، وهو في بيتِ أخيهِ ليسَ بخافٍ لولا وجُود (إذا) الّتي دلَّلتْ على أنَّ هِمَّةَ الرَّضي تتعطَّلُ أحياناً، والحُسْنُ كامنٌ في قولهِ: (في مُهجاتِ الأنْجُمِ الشُّهُبِ)، إذ يُوحي بأنَّ هِمّتهُ في ذِرْوةِ العلياءِ شاهقةً مُحقَّقةً، هِمَّةً تَحْدُوها الرَّواعِدُ والبوارِقُ، يتْبعُ لاحقُها السَّابق. وقالَ سنة (٣٧٩هـ):

ومَا لي هِمَّةٌ إلا المَعَالي وَذَنَبُ الضَّيْمِ عَنْ نسبٍ صَمِيْمِ

وقال أخوهُ:

ولي هِمَّةٌ لا تحمِلُ الضَّيْمَ مرَّةً عزَائِمُهَا في الخَطْبِ جيشٌ عَرَمْرَمُ

الرَّضي يدفعُ الظُّلْمَ عن (نسبٍ صميمٍ)، والمُرْتضى يدفعُهُ عن نَفْسهِ، ولا يقبلُ بهِ قطّ. وأحسبُ جمالَ الشَّطْرِ الأوَّلِ للرَّضي كجمالِ الشَّطْرِ الثّاني لأخيهِ .

***- الفخْرُ بالمَجْدِ، إذ قالَ الرَّضي:**

وشدَّ المَجْدُ أطْنَابي إليهِ ومدَّ على جوانبهِ حِبَالِي

وقالَ المُرْتضى:

ومَا غَبَطَ الحُسَّادُ إلا فضيلةً وحَسْبُكَ مَجْداً أنْ ترى لكَ غابِطَا

سلاماً على بيتِ الرَّضي، إذ أراهُ يروقُ كلَّ عَيْنٍ، تأمّل الفعلان: (شدَّ، ومدَّ)، إذ يُوحيانِ بالعَلاءِ الصَّريحِ، والسُّؤْددِ المَحْضِ، بمجْدٍ جلَّ عن الوصْفِ، وخُلِقَ من جوْهرٍ أعْى الحاسِدَ والغامطَ. وقال الأوَّلُ:

المجْدُ يعلَمُ أنَّ المجْدَ مِنْ أرَبي ولوْ تماديْتُ في غَيٍّ وفي لَعِبِ

وقالَ الثَّاني:

أبى المجْدُ يوماً أنْ أكونَ مُعرِّجاً على سفهٍ أوْ أنْ أُلَمَّ بِعَارِ

المُرْتضى يبدو حكيماً عن أخيهِ الّذي يتمادى تِيْهاً. ولاحظِ (الظَّرْفَ)، والمفعول بهِ (مُعرِّجاً)، إذ يُوحيانِ بأنَّ حكمتهُ لمْ يُخْلقْ مثْلُها، ثواؤُها ومُقَامُها تحتَ سوابغِ الظلِّ المديدِ. وأراني أتعجَّلُ بالنظرِ لما يأتي:

***- الفخْرُ بالحِلْمِ، يقولُ الرَّضي:**

وللْحِلْمِ أوْقاتٌ وللجَهْلِ مِثْلُهَا ولكنَّ أوْقَاتي إلى الحِلْمِ أقْرَبُ

ويقولُ المُرْتضى:

ما عاقني الحِلْمُ عن باغٍ عَنِفْتُ بهِ ولا نسيتُ الرِّضا في موطنِ الغَضَبِ

من الحكيمُ هُنا ؟ إنَّهُ الرَّضي. وأتعجَّبُ من أخيهِ ؛ لأنَّ منْ يَرْضى في موطنِ الغَضَبِ يَحْلمُ في موطنِ الغَضَب.

***- الفخْرُ بالكَرمِ، فهذا الرَّضي يقولُ:**

وتطرُّفي حيثُ السَّما حُ الغَمْرُ والحَسَبُ اللُّبابُ

ويقولُ المُرْتضى:

فلو انَّ حاتِمَ طيّءٍ وقبيْلَهُ وفدوا عليَّ تعلَّمُوا منْ جُودى

لمن الحُكْمُ ؟ للمُرْتضى. وصدقَ اللهُ حين قالَ: (قُضِيَ الأمْرُ الَّذي فيهِ تَسْتَفْتِيانِ). وإذا كانَ حديثُ (الشَّجاعةِ) قد غلبَ عندَ الرَّضي، فإنِّي رأيتُ حديثَ (الكرمِ) عندَ المُرْتضى أغلبُ وأسْبقُ ، فمنْ منَّا يَنْسى قولهُ:

والطَّارِقُ النَّازِلُ أدْنى إلى زَادِي مِنْ أهْلِي ومِنْ أُسْرتى

والمُرْتضى يأتي راكباً سَنَامَ النَّدى في كلِّ يومِ نِهَابٍ، ولا يُروَّعُ جارُهُ، وهذا ضيفُهُ لا يعُودُ بِعُسْرٍ، يَعْقِرُ ويَذْبحُ في كلِّ أزْمةٍ..، إلى غير ذلكَ ممَّا لم يأت عندَ الرَّضي الّذي ملأ الدُّنْيا افتخاراً بجُودِ ساداتِ مكَّة، وجيرانِ بيتِ اللهِ.

***- الفخْرُ بالعِرْضِ، إذ قالَ الرَّضي:**

تَغَاوتْ على عِرْضِي عَصَائِبُ جَمَّةٌ ولَوْ شِئْتُ ما التفَّتْ علىَّ غُواتُها

وقالَ المُرْتضى:

ولَهُ عِرْضٌ نَقِيٌّ زالِقٌ عنهُ السِّبابُ

وقال:

بعِرْضٍ لا أجودُ بهِ مصُونٍ ومالٍ لا أضِنُّ بهِم ُذالِ

عِرْضُ الرَّضي اجتمعَتْ وتعاونَتْ عليهِ عصائِبٌ كثيرةٌ، وعِرْضُ المُرْتضى نَقِيٌّ مصونٌ، فأين الأوَّلُ من هذا ؟ وتأمّل قولهُ: (ولو شِئْتُ ما التفَّتْ علىَّ غُواتُها)، والسُؤالُ: ما الّذي مَنَعَهُ ؟

***- الفَخْرُ بالإمامةِ، كأن يقول الرَّضي:**

وُلّيتُهَا طِفْلاً فهَلْ مَجْدٌ يُعدَّدُ مِثْلَ مَجْدِى

ويقولُ المُرْتضى:

وَسُدْتُ قوميَ في عَصْرِ الصِّبا حَدَثاً ولمْ يسُودوا مَشْيْباً لا ولا جَلَحَا

لا شكَّ أنَّ بيْتَ المُرْتضى دونَ بيتِ أخيهِ ؛ لأنَّهُ يفتخرُ بنفْسهِ على قومهِ، بل ويُعيّرهُم، وعِلَّةُ ذلك فيما علمتُ أنَّهُ أبرَّهُمْ وربحَ عُقُوقَهُمْ. وسيأتي بيانُ ذلكَ في الحديثِ عنِ (الدَّوافعِ).

***- الفَخْرُ بالبيتِ، فهذا الرَّضي يقولُ:**

إذا عُدَّ المناقِبُ جاءَ بيتِي يَجُرُّ ذُيُولَ أحْسَابٍ ضَوافِى

ويقولُ المُرْتضى:

وفي بيتي النُّبوَّةُ ما عَدَتني وقانونُ الإمامةِ في نِصَابى

هذا فَخْرٌ فائقٌ رَائقٌ، إلا أنِّي أرى المُرْتضى يزيدُ على أخيهِ خُطْوةً بقولهِ: (وقانونُ الإمامةِ في نِصَابي) أيْ أصْلي. والمُعْجبُ أنَّ كلاهُما أتى بكلمةِ (بيتي) مُفْردةً، إذ قال الأوّلُ: (جاء بيتي)، وقال الثّاني: (وفي بيتي)، وعِلَّةُ ذلك أنَّ كلاهُما يفتخرُ بنفْسهِ لا بأهْلهِ، وفي الفَخْرِ بهم جاءتْ (جَمْعاً)، إذ قال الرَّضي آنفاً: (بيُوتُهُمْ مَرْهُوبةٌ)، وقال المُرْتضى: (لمْ تَدْخُلْ الفَحْشَاءُ في أبياتنا). وقريبٌ من ذلك ما يأتي.

***- الفَخْرُ بالطَّهَارةِ ، فهذا الرَّضي يقولُ:**

ولا أعْرِفُ الفَحْشَاءَ إلا بِوَصْفهَا ولا أنْطِقُ العَوْرَاءَ والقَلْبُ مُغْضَبُ

ويقولُ أخوهُ:

أعِفُّ وما الفَحْشَاءُ منِّي بعيدةٌ وحَسْبِيَ من صَدٍّ عن الأمْرِ إثْمُهُ

لا غُبارَ على من نَزَلَ الذِّكْرُ في أبياتهم، وخصَّهُم بفضيلةِ الكمَالِ والسَّبقِ، فالنَّفْيُ في (لا، وما) يُوحي بأنَّهُما مُكرَّمانِ عنِ المَحَارمِ. والحديثُ عن طهَارةِ الذَّيْلِ في شِعْرِ الشَّريفينِ يطيبُ بهِ الذِّكْرُ، ويَغَارُ منهُ الدَّهْرُ، فتأمّل قولَ الأوّل:

وإنِّي لا تُدَنِّسُنى المَخَازي وإنِّي لا يُروّعُني السِّبابُ

وقولَ الثَّاني:

وإنِّي وأدْناسُ الزَّمانِ كثيرةٌ مَرَرْتُ فلمْ تَعْلَقْ بهنَّ ثِيَابى

وهو حديثٌ يتكرَّرُ كثيراً لغايةٍ نبيلةٍ نُحيطُ بها عِلْماً، فالشَّريفانِ أكْنَافُهُما مُخْضرَّةٌ، مُحصَّنةٌ عن القبائحِ ؛ لأنَّهُما ينتميانِ إلى أشْرَفِ بيتٍ، وأعزِّ سادةٍ. ونُلاحظُ أنَّ كلاهُما أكَّدَ الكلامَ بـ (وإنِّي) وكأنَّنا في حاجةٍ إلى توكيدٍ لِبُعْدِهما عن كلِّ مَحْرمةٍ، ولَسْنا كذلك.

ووقَعَتْ يدي على بَعْضِ الصِّفاتِ الدَّاعيةِ لكُلِّ فخْرٍ كـ (الوقارِ) في قولِ الرَّضي:

وقورٌ فلا الألحانُ تأْسِرُ عَزْمتي ولا تمْكُرُ الصَّهْباءُ بي حينَ أشْرَبُ

وقولِ المُرْتضى:

فإن كُنْتَ لا تَعْرِفْ وقارِيَ جاهِلاً فسَلْ شامخاتِ الصُّمِّ كيفَ وقَارِى

الأفضليَّةُ للمُرْتضى. والشَّطْرُ الثَّاني في بيتِ الرَّضي يتعارضُ مع قولِهِ:

وأعْرِضُ عنْ كأْسِ النَّديمِ كأنَّها وميْضُ غَمَامٍ غائِرُ المُزْنِ خُلَّبُ

وقولِهِ:

أعافُ ابْنَةَ الكَرْمِ لا ابْنَ الغَمَا مِ بينَ غَبُوقي وبينَ اصْطِباحى

أين قولهُ: (حين أشْرَبُ) من الفعلينِ: (وأُعْرِضُ، وأعافُ) ؟ والسُّؤالُ: هل شربَ الرَّضي الخمرَ ؟ حاشا للهِ ... إذنْ فماذا ؟ إنَّه شيطانُ الشِّعْرِ، وصدقَ اللهُ حينَ قالَ: (وأنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ). وهُناكَ (الماجدُ) عندَ الرَّضي، و (النَّزاهةُ) عندَ المُرْتضى، فهذا الأوَّلُ يقولُ:

لَوْ عَلِمَتْ أيَّ فتىً ماجِدِ ذاتُ اللِّمَى والشَّنَب البارِدِ

ويقولُ الثّاني:

فمِنْ عَذْبِ أزْوَادِ النَّزاهةِ مَطْعَمي ومِنْ ماءِ أحْواضِ العَفافِ شَرابى

التَّصْفيقُ والإعْجَابُ للمُرْتضى الّذي أراهُ مَلَكَ قُلوبنا بهذا البيتِ الّذي حطَّتْ لهُ الدِّيمُ أثْقَالهَا، وخطَّ لهُ الرَّبيعُ من جَمَالهِ كتابَ الفَضْلِ. ويدخُلُ فيما سبق:

(أ)- الفَخْرُ بالأعْضَاءِ ، وهذهِ هى:-

***- الفَخْرُ بـ (اليدّ):-**

تأتي (اليدُ) في هذا البابِ عندَ الرَّضي ؛ للدلالةِ على (الشَّجاعةِ، والجُودِ) كأن يقول:

بيَدِي من الهِنْدِيِّ فَضْلُ عِمَامةٍ لابُدَّ أعْصِبُها بِرأْسِ مُسوَّدِ

ويقولُ:

يَدِي أَلِفَتْ بَذْلَ النَّوالِ فلَوْ نَبَتْ عن الجُودِ يوماً قُلْتُ: ما هذهِ يَدِى

وها هى ذي عندَ المُرْتضى:

كلُّ الفضَائلِ في يَدَيَّ وما لَكُمْ منهُنَّ أفرادٌ ولا أزْوَاجُ

بَيْتى الرَّضي من جيِّدِ الفَخْرِ ؛ لأنَّ الأوَّلَ يُوحي بأنَّهُ قاتِل العِدَى، ويُوحي الثَّاني بأنَّهُ قاتِل المَحْلِ، ولكنِّي أراهُما يطيشانِ أمامَ بيتِ أخيهِ، إذ

لنا أنْ نتأمَّلَ قولهُ: (كلُّ الفَضَائلِ في يديّ)، وكأنِّي بالمُرْتضى يَمْسِكُ بالجُودِ، والبأْسِ، والاصْطِناعِ، والإرْغامِ، والعَفْوِ، والانتقامِ....إلى آخرِ هذهِ الفَضَائلِ التي تقولُ بأنَّ أحْدَاثَ اللَّيالي تخافُ سُطاهُ، والنُّوبُ العِظامُ تَصْغَرُ دونهُ... تقولُ أنّ لهُ عِفَّةٌ في قُدْرةٍ، وتواضعٌ في عِزَّةٍ، وشراسةٌ في لينٍ... تقولُ بأنَّ فضائلَهُ أَلْقَتْ عصَاهَا على كلِّ الخلائقِ، فضائلٌ مخلوقةٌ من سُؤْددٍ ونّدىً، وفضائلُ الأنامِ خُلِقَتْ سُلالةً من طينٍ.

*- الفَخْرُ بـ (الكفِّ):

الحديثُ عن (الكفِّ) كالحديثِ عنِ (اليدّ)، إذ هُما أمْضَى الأنامِ عزيمةً، وأحْمَلُهم ثِقَافاً، فهذا الرَّضي يقولُ:

يَمْشي الحُسَامُ بكفِّي في رؤوسهمُ ويَخْرُقُ الرُّمْحُ ما تَعْيا بهِ الفُتُلُ

ويقولُ المُرْتضى:

إذا حملتْهُ كفِّي في هِيَاجٍ فويلٌ للجَمَاجمِ والرِّقابِ

كلاهُما يُفاخِرُ بـ (الصَّقِيْلِ) الّذي يَمْشي عند الرَّضي، ويُهْلِكُ عندَ أخيهِ. ونُلاحِظُ أنَّ الفعْلَ (يَمْشي) يدلُّ على أنَّ الرَّضي في حَرْبٍ، و (إذا) تقولُ بأنَّ المُرْتضى في سِلْمٍ، وكذلك تُوحي بأنّهُ إذا لَبِسَ التَّرائكَ أيقنتْ صُمُّ العَوالي أنَّها ستتحطَّم، والجَمَاجمُ والرِّقابُ ما ينفكُّ يَقْطُرُ منها الدَّم. ولا شكَّ أنَّ بيتَ الرَّضي أجودُ بالفعلينِ (يَمْشِي، ويَخْرُقُ)، إذ يدلَّانِ على أنّه كالصَّخْرِ لا يَرِقُّ ولا يَرْحمُ. ووجدتُّ الرَّضي يُفاخِرُ بأعْضَاءٍ أُخْرى تدلُّ على أنّه قَرْمٌ، ناهِضٌ، مُعظَّمٌ، هى: (اللِّسانُ، والبنانُ، والقدَمُ، والأنْفُ)، فالأوَّلُ حصاةٌ يَقْرَعُ الجهْلَ بالحِجَا، والثّاني خُلِقَ للرُّمْحِ والقلمِ، والقدمُ تعْتَلي على قَمَرِ

السَّماءِ المُوفي، والأنْفُ كأنْفِ اللَّيثِ يأْبى المذلَّةَ، يَنْضُو خُلْعةَ الشَّمِ من التَّواضُعِ.

(ب)- التَّشْبيهُ:-

لا أظنُّ الحديثَ عن الفخْرِ بـ (النَّفْس) يمرُّ دونَ النَّظرِ إلى تَصْويرها بصورٍ تَشْبيهيَّةٍ فخريَّةٍ كأنَّها في رَبْوةِ روضةٍ تُنْبِتُ زَهْراً، وتُمْطِرُ فرحاً، هاكَ هى:

***- صُورةُ الأسدِ، فهذا الرَّضي يقولُ:**

أنا الأسدُ الماضي على كُلِّ فَعْلَةٍ تُمشِّي شِفَارَ البيضِ فوقَ الجَمَاجِمِ

ويقولُ المُرْتضى:

فى الغابِ والغابُ مجازٌ لكُمْ ليثٌ بلا عُذْرِ الكَرَى يُطْرِقُ

أينَ الصُّورةُ في بيتِ المُرْتضى ؟ أنا لا أرى أيَّ شيءٍ يُذْكرُ. والصُّورةُ في بيتِ الرَّضي مُتوجَّةٌ بالحُسْنِ، صُورةٌ تكاملتْ بـ (الأنا) الدَّالةُ على أنَّهُ الذَّائدُ الحَامِي الحِمَى بالبيضِ الرَّواعِفِ، والقَنَا المُتَشاجِرةِ، وفي نعْتِ الأسدِ بـ (الماضي)، وقوله: (على كلِّ فعْلةٍ) تأكيدُ ذلك. وانْظُرْ إلى الفعْلِ (تُمشِّي) إذ يُوحي بأنَّ بأْسَ الرَّضي كتيَّارِ الفُراتِ على العدوّ، بأْسٌ يُهِينُ ولا يُهانُ ، يُوعِدُ بالنَّارِ كعُقابٍ كاسرٍ، أوْ كالْمُدْرِكِ بالثَّأْرِ.

والحقُّ أنِّي وجدتُّ هذهِ الصُّورةَ عندَ المُرْتضى لا تَرْتقِي إلى صِورِ أخيهِ، كأن يقول:

فَدَعُوا للشُّجاعِ مَطْواهُ في الوا دِي وخلُّوا العَرِينَ للضِّرْغام

أرأيت ؟ أين هذا من قولِ الرَّضي ؟

وَلِضَيْغمٍ يطأُ الرِّجالَ غُلبَّةً بِقَناً منَ الأنْيَابِ أوْ بسُيُوفِ

الرَّضي يقْهَرُ الرِّجالَ سريعاً كأنَّهُ الموتُ، يَقْهرهم بأنيابٍ وأظافرٍ كشوكِ العقاربِ.

***- صورةُ الحُسامِ، كأن يقول:**

فَما تشبَّثُ بي دارٌ ولا بلدٌ أنا الحُسَامُ وما تَحْظى بهِ الخِلَلُ

ويقولُ المُرْتضى:

بأنِّيَ فيهِ الرُّمْحُ بل كسنانهِ أو السَّيفُ لا تَنْبُو عليهِ مَضَارِبُهْ

لا شكَّ أنَّ الشَّطْرَ الثَّاني من بيتِ المُرْتضى كالشَّطْرِ الأوَّلِ في بيتِ أخيهِ السَّابق: (فما سَهْمي السَّديدُ من النَّوابي). والضَّميرُ في (فيهِ) يعودُ على خَطْبٍ لا تُردُّ مخالبهُ، خطْبٍ لم ينْجُ منهُ هاربٌ إلا المُرْتضى الّذي خلُصَ خُلوصَ التِّبْرِ. و(الأنا) في قولِ الرَّضي: (أنا الحُسامُ) تقولُ بأنّهُ الحاملُ الأعْبَاءَ كَلَّ مُطِيْقُهَا، وهو عندي أجودُ من أخيهِ ؛ لقولهِ: (فما تشبَّثُ بي دارٌ ولا بلدٌ)، إذ يُوحي بأنَّ الرَّضي لا سَكَنَ لهُ ولا لُبُوثٌ، يَجُوبُ البيْدَ والمَهَامهَ، السَّباسِبَ والقِفارَ بَحْثاً عنِ الأعْداءِ، ليلهُ إليهم أحْمَلُ ظَهْرٍ يركبهُ، والصَّباحُ طِرْفٌ، والدُّجى جَمَلٌ. وهُناكَ أيضاً عندَ الرَّضي صُورَ: (البدْرِ، والفَحْلِ، والثُّريَّا، والنَّجْمِ)، وعندَ المُرْتضى صُورتي: (الهلال، والصِلّ)، وجميعُها لا

تُعابُ ؛ لأنَّها ترسمُ لنا شَرَفاً أنافَ على الكواكبِ، ومناقباً جَلَّتْ عنِ الوصْفِ، فهاكَ الأوّلُ يقولُ:

وإنَّ مُقامَ مِثْلي في الأعَادِي مُقامُ البِدْرِ تَنْبَحُهُ الكِلابُ

ويقولُ الثّاني:

فلئِنْ غرَّكُمْ صُموتي فكم صِل ٍ فلاةٍ يَهبُّ بعْدَ منَامِ

كلاهُما يُعاني حَسَدَ الأعْدَاءِ، حَسَدَ غبيٍّ، وعنُودٍ، وقصيرِ المرامِ. والصُّورةُ في بيتِ الرَّضي مَطْروقةٌ، بل لسْتُ مُبالغاً إنْ قُلْتُ إنَّ دِيوانَ الشِّعْرِ العربيِّ يعجُّ بها من مثْلِ قولِ "الحَيْسي":

فما على البَحْرِ منْ كلبٍ بهِ ولَغَا ولا على البَدْرِ منْ عاوٍ عَوَى ولَغَا

وأحسبُ هذا أدقّ ؛ لأنّهُ جمعَ بينَ تشبيهينِ جيِّدينِ دونهما الرَّضي. والملاحظَةُ الأولى على كليهما أنَّ (المُشبَّه بهِ) في بيْتِ الرَّضي أقْصَى ما لديهِ في هذا البابِ المُوجعِ، وما ذلك إلا لأنَّ الفَخْرَ ميدانُهُ، بخلافِ الحَيْسي ميدانهُ (الهجاء)، وكفانا عِلْماً أنَّ بيتهُ هذا (مَطْلعُ القصيدةِ)، وهو مَطْلعٌ خبيثٌ فاحِشٌ ينمُّ عن القَصْدِ والتربُّصِ ، وفي (التَّصْريعِ) الدِّلالةُ والغايةُ. والمُلاحظةُ الأُخْرَى تبدو في (الدَّافعِ)، فالرَّضي يَهْجُو أُناساً رَمَوْهُ بعيُوبٍ مُلفَّقاتٍ، كَسَوْهُ من عُيُوبهم وهُو لا يُعابُ، ولا تُدنِّسهُ المَخَازي، والحَيْسي يَهْجُو نذْلاً وضيعاً ادَّعى أنَّهُ من الأشْرَافِ وهو ضدَّهُم. وقد لاحظنا أنَّ الدَّافعَ عندَ الرَّضي أقْوى ومع ذلك جاء هجاؤُهُ أدْنى، والعِلَّةُ كما قُلنا أنَّهُ يعافُ رُكُوبَ هذا الفنِّ.. يُخلِّيهِ لِشُعراءٍ هُمْ وأصْحابُ الخَنَا شَرَعاً، شُعراءٍ في النَّهارِ يُراؤن، وفي الدُّجى يَفْتِلُونَ الشَّرّ.

(ج)- الفَخْرُ بالشَّاعِرِيَّةِ:-

الفخْرُ بـ (الشَّاعريَّةِ) آخرُ أنواعِ الفَخْرِ بينَ الشَّريفينِ، وهو ظاهرةٌ قديمةٌ مَطْروقةٌ ، يتغنَّى فيها الشَّاعرُ ببناتِ قصائِدِهِ التي يراها القصيدةَ الأُمَّ، أو القصيدةَ الأولى التي نبتتْ من ظَهْرٍ دونهُ كلّ ظَهْرٍ، فالرَّضي شهدتْ لهُ خيلُ الخواطرِ أنّهُ خيرُ الصَّهيلِ ، وما سواهُ نهيقٌ، ولم لا وقد بزَّ شعْرَ "زُهير بن أبي سُلْمى) ، ولم لا وقوافيهِ أنْسَتْ الشُّعراءَ طُرَّاً عواءهُم..شُعراءٌ مُسَفْسةٌ ، مُقْرفةٌ قوافيهم. وقصائِدُ المُرْتضى يُنْسِيكَ نظْمُها نَظْمَ الثُّغورِ ، قصائدٌ غَضَّةُ النَّواحي...سيَّارةٌ في عِرْضِ كلِّ تنوفةٍ ، هو سيِّدُها ، وكلُّ الشُّعراءِ عبيدُ.

وفي طريقِ الفَخْرِ بـ (الشَّاعريَّةِ) وقفْتُ على عِدَّةِ صورٍ قامَتْ على (التَّشْبيهِ) ، وتلاقى بعْضُها في عيْنِ الأخوينِ ، والأخْرى انْفَردَ بها الرَّضي، وهذهِ هي الصُّورةُ اليتيمةُ التي تلاقتْ عندَهُما:

***- صُورةُ الرَّوضِ ، فهذا الرَّضي يقولُ في يومِ الغديرِ سنة (٣٩٦هـ):**

وقصيدةٍ عَذْراءَ مِثْـ ـلِ تألُّقِ الرَّوْضِ النَّضيرِ

ويقولُ المُرْتضى:

كأنَّها في ربْوةٍ روضةٌ أوْ مِنْ شبابٍ ناعمٍ رَيِّقُ

ويقولُ أيضاً : وكأنَّها روضُ الثَّرى المَطْلُولُ

المُرْتضى أسبقُ في البيتينِ ؛ لأنّهُ في البيتِ الأوّلِ أتى بتشْبيهينِ أحلاهُما الثَّاني ؛ لنعْتِ (المُشبّه به) بقولهِ : (ناعمٌ رائِقُ)، وهو – المُشبّه

بهـ في البيْتِ الثَّاني روضُ مَنْ ؟ إنَّها (الثَّرى) على اتِّساعها، بل هو أنْدَى وأجود لقولهِ: (المطلول) أيْ المبلول. وهو قريبٌ من نعْتِ (الرَّوضِ) بـ (النَّضيرِ) في بيْتِ الرَّضي الذي أجادَ حين نعَتَ القصيدةَ بقولهِ: (عَذْراء)، إذ يُوحي بأنَّهُ أحْسَنَ نَظْمها حتى صارتْ تختالُ...تَحْلى بنظْمِ عُقُودها.

وحدَّثْتُكَ أنَّ هذه الظَّاهرة طرقَهَا الشُّعراءُ قبلَ الشَّريفينِ وبعدهُما، ومن ثمَّ فلا غرابةَ أنْ نجدَ هذه الصُّورةَ في أعيُنِ الشُّعراءِ كقولِ "سبط بن التّعاويذي" سنة (٥٥٧٦ه) :

كأنَّها روضةٌ بِمَحْنيةٍ باتَ يمجُّ النَّدَى بها الزَّهَرُ

ممعنُ النَّظَرِ في القصيدةِ يرى "ابنَ التَّعاويذي" يُباهي بقصيدةٍ لا تُعابُ ، قصيدةٍ من رامَ أن يُطاولها عادَ بالعَنَاءِ الطَّويلِ والسَّهرِ، قصيدةٍ فَضَلتْ بمعنى رائقٍ ، ولفظٍ ساحرٍ هو فيه أُمَّةٌ وحْدَهُ. وها هو ذا يقولُ في موضعٍ آخر:

كالرَّوْضةِ الغنَّاءِ أوْ كَغِناءِ ساجِعةٍ هَتُوفِ

وعنْدِي أنَّ الصِّورَ التي انفردَ بها الرَّضي مبثوثةً في ديوانِ الشِّعْرِ العربي، كأن يقول:

هذهِ تُحْفتي إليكَ وخيرُ الـــ ـــعِّرِ ما كانَ تُحْفةَ الإنشادِ

أحسبُ (المُشبّه به) هُنا دونَ (المُشبّه بهِ) في قولِ "ابنِ التَّعاويذي" :

تُحفاً تَهَاداهَا المُلُوكُ أصُونُها عَنْ بِذْلةٍ بنزاهتي وعَفَافي

حديثُ الرَّضي لأبيهِ سنة (٥٣٧٦)، وحديثُ "ابن التّعاويذي" للمُسْتضئ بأمرِ الله سنة (٥٥٧٤)، ولكن أينَ الرَّضي من قصيدةٍ يتهاداها المُلوكُ ؟ قصيدةٍ كعرائسٍ لم يَسْمَحْ بمثلها فِكْرٌ ، وغرائبٍ تَسْري في طُولِ البلادِ وعرضها. وأرى في قولهِ: (أصوُنها عنْ بِذْلةٍ بنزاهتي وعفافي) كذبٌ فاجرٌ ؛ لأنّهُ مرَّغَ جبْهَتَهُ في الاسْتِجْداءِ، وحسْبُكَ أن تعلمَ أنَّهُ اسْتَجْدَى علفَ الحمير.

والطَّريفُ أنَّ الرَّضي الذي افتخَرَ بأنَّ شِعْرَهُ بزَّ شِعْرَ "زُهير بن أبي سُلْمى" في قولهِ:

بزَّ زُهيراً شِعْري، وها أنا ذا لمْ أرْضَ في المجْدِ أنَّهُ هَرِمُ

ها هو ذا يجعلهُ في درجةٍ من درجةِ شِعْرِ "جرير والفرزدق" :

وكأنَّهُ في رَصْفِهَا جارُ الفرزْدَقِ أوْ جريرِ

ووجدتُّ المُرْتضى ينعتُ قصيدتهُ بنعْتٍ فاخرٍ ، ومعنى رائقٍ هو قولهُ:

غرَّاءَ لو تُلِيتْ على ظُلَمِ الدُّجى شابتْ لها لِمَمُ الرِّجالِ السُّودِ

ولم أجِدْ مثل ذلك عندَ الرَّضي، ولكنِّي وجدتُّ نُعُوتاً أُخْرى جمالُها من جمالِ هذا النَّعْتِ من مثْلِ: (عَذْراءَ ، بيضاءَ ، بدويَّةً ، مُبْيضَّةً ، عقائِلٌ ، كرائِمٌ ، حُرَّةً ، مَحْضةً...) وهكذا.

واستخدمَ الأخوان الفعلَ (خُذْها) ؛ للدِّلالةِ على الفَخْرِ بالشَّاعِريَّةِ ، فقال الأوَّلُ :

خُذْها فغُرَّتُهَا منَ الكَلِمِ الجَنَى وحُجُولُهَا مِنْ صَنْعةٍ وَمَعَانِ

وقالَ الثَّاني :

خُذْها فما لِطُلوعها – مُبْيضَّةً- كطُلُوعِ أوْضَاحِ الصَّباحِ أُفولُ

الرَّضي يتحدَّثُ لأبيهِ ، والمُرْتضى يتحدَّثُ عن مُغَامرٍ يَلِجُ القتامَ بحُسَامٍ في يديهِ دليلهُ..مُغَامرٍ ربِحَ الحياةَ بالطَّعْنِ والضِّرابِ. ولا أرْتابُ في أنَّ المعنى في بيتِ الرَّضي جيِّدٌ حسنٌ ، ولكنِّي أُفضِّلُ عليهِ بيتَ أخيهِ ؛ لنُدْرةِ مَعْناهُ ، إذْ لم تقَعْ عيني على مثلِ هذا المَعْنى المُتفشِّي في بيتِ الرَّضي ، ومن ذلك قولُ "ابن التَّعاويذي" مُخاطباً عضُدَ الدِّين:

خُذْها إليكَ عقَائِلاً مثْلَ العَذَارى البيْضِ نُهَّدْ

فالمعْنى في عَيْني سواء.

المبحثُ الثَّاني

داوافِعُ الفَخْرِ

كثيرةٌ هي دوافِعُ الشَّريفينِ للفَخْرِ، وهي دوافِعٌ مُتعدِّدةٌ تكشفُ عن نجاحهما نجاحاً دفعَ الحاقِدَ والحاسِدَ، الجاهِلَ والعائِبَ، الغبيَّ والدَّنيَّ، الأقاربَ والأباعِدَ إلى إظْهَارِ ما بأنفسهم من بُغْضٍ وحِقْدٍ، وقولٍ كاذبٍ، ومحاولةِ سحبِ بُساطِ النَّجاحِ من بينَ أيديهم ومن خلفهم.

وقد لاحظتُ أنَّ الجاهِلَ ، والحاقِدَ، والحَاسِدَ ...إلخ هو من يُهيِّجُ الشَّريفينِ بالتَّعالي عليهما، أو الانتقاصِ منهما، أو غير ذلك، ومن ثمَّ يدفعهُما إلى التَّفاخُرِ والتَّعالي ، إلى التَّحْذيرِ والهجاءِ.

وجلُّ هذه الدَّوافعِ في غيرِ معْلُومٍ، أيْ أنَّ الشَّاعِرَ لا يكشفُ كُنْهَ المُفْتخرِ عليهِ، وإنَّما يُشيرُ إلى صفتهِ كـ (الجاهِلِ، والغبيِّ، والدَّنيِّ، والعَادِي، والحاسدِ.....وهكذا). وبالبحْثِ في الدَّوافعِ وجدتُّ أنَّها تلاقَتْ أحياناً في عيْنِ الأخوينِ، وانفردَ كُلٌّ بدوافعٍ أُخْرى، كما نرى :

(أ)- دوافِعُ التَّلاقي ، وتدورُ في فلكِ:

(١)- الأعْدَاءِ، فهذا الرَّضي يقولُ وقد بلغهُ عن رجُلٍ من الطَّالبيِّين ذِكْرِهُ في مَعْنى النَّقابةِ:

قُلْ لِلْعِدَى مُوتُوا بِغَيْـ ظكُمُ، فإنَّ الغيظَ مُرْدِي

وَدَعُوا عُلىً أحْرَزْتُهَا يا وَادِعينَ بِطُولِ جُهْدِ

ويقولُ وهو ضيِّقٌ صَدْرهُ بأمْرِ النِّقابةِ، وما يتكلّفهُ من التَّشدُّدِ ، وإقامةِ الهيبةِ فيها:

وقَدْ عرفَ العِدَى وبَلَوْا قديماً خُطاىَ إلى المنايا وازْدِلافي

أقلِّوا لا أباً لَكُمُ وخلُّوا مُطاعنةَ الأسنَّةِ بالأشافي

وهذا المُرْتضى يقولُ:

فَقُلْ لِلْعِدَى كُونُوا جميعاً بنجْوةٍ إذا ماجَ تيَّارِي وَجُنَّ عُبَابي

ويقولُ:

وقُلْ لِلْعِدَا كُفُّوا فُضُولَ طَماحِكُمْ فما أنتمُ باللاحقينَ غُبَارِى

تأمَّل أفعالَ الأمْرِ: (قُلْ ، مُوتُوا ، دَعُوا ، أقلِّوا ، خلُّوا ، كُونُوا ، كُفُّوا) ، إذ تُوحي بأنَّ الأعْدَاءَ لمْ يفلحُوا قطّ في محاولةِ زَعْزعةِ الشَّريفينِ عن المَجْدِ، أنَّى ذلك وفي بيتهما النُّبوَّةُ ، وقانُونُ الإمامةِ ؟ أنَّى ذلك وقد بلغَا مراماً عزَّ مطلبهُ ، وولجَا العُلا من كلِّ بابٍ ؟ أنَّى هذا وهُما في ظلِّ نُعْمى لا تَنْقَضي أبداً وينقضي الأمدُ ؟ وهذا النَّقْصُ مُلْتحفٌ بالأعْدَاءِ...أعْدَاءٌ يبيتُونَ في كنفِ الأخوينِ بل في خَفَارةِ أسيافهما وأرماحهما.

وعُدْ إلى الأبياتِ تُلاحِظُ أنَّهما يفتخرانِ على الأعْدَاءِ بـ (العُلا) في قولِ الأوّلِ : (ودَعُوا عُلىً) ، وفي قولِ الثَّاني: (فما أنتم باللاحقينَ غُبارِي)، و(الشَّجاعةِ) في قولِ الرَّضي: (وبلوا قديماً خُطاي إلى المنايا)، وقولِ المُرْتضى: (كُونُوا جميعاً بنجْوةٍ إذا ماجَ تيَّاري وجُنَّ عُبابي).

وهُناكَ أيضاً الفخْرُ بـ (الحِلْمِ) في قولِ هذا :

قُلْ لِلْعِدَى قدْ مَضَى رِفْقِي بهِمْ زمناً فحاذِرُوا الآنَ غِبَّ الحُكْمَ إيقَاعِي

ونُلاحظُ أنَّ الفعلَ (قُلْ) يأتي دائماً في صَدْرِ البيتِ ، ويُسْبقُ أحياناً بـ (الواوِ)، وأحياناً بـ (الفاءِ) ؛ للدِّلالةِ على أنَّ الشَّريفينِ دَاسَا أُفقَ الجوْزاءِ بالنَّعْلِ ، وأنَّ الأعْدَاءَ دونهما ؛ لأنَّهُم على حدِّ قولِ المُرْتضى المناحِسُ ، وأجزاعُ الضَّغابيسِ.

وأحسبُ أنَّ الحقَّ مع الشَّريفينِ لو كانَ الدَّافِعُ منَ الأعْدَاءِ الغِيْرةَ أو الحَسَدَ أو الحِقْدَ، وما إلى ذلك ، أمَّا أن يكونَ الدَّافِعُ (الطُّموحَ) فلا حقَّ لهُما في هجَاءِ صاحبهِ ، أو الانتقاصِ من شأنهِ ؛ لأنَّ (الطُّموحَ) حقٌّ مكفولٌ للجميع ، ومن يسبقُ نُصفِّقُ لهُ ، ومن ثمَّ فلسْتُ مع المُرْتضى في قولهِ:

فَقُلْ لِلْعِدَا كمْ ذا الطِّماحُ إلى الذي عَلا قَبْلَكُمْ نحو السَّماءِ مُحلِّقا ؟

وقولهِ:

وقُلْ لِلْعِدَا كُفُّوا فُضُولَ طَماحِكُمْ فما أنتُمْ باللاحقينَ غُبَارِى

(٢)- القوم ، يقولُ الرَّضي:

وجَاذَبني على العلياءِ قومٌ ومَا عَلِمُوا بأنَّ جميعها لي

لَئِنْ نِلْتُ الكواكبَ في عُلاهَا لقَدْ أبْقَيْتُ فَضْلاً منْ مَنَالى

ويقولُ المُرْتضى:

أيفْخَرُ قومٌ ما لَهُمْ مِثْلُ مَفْخَرِي وأينَ منَ النَّهْجِ القويمِ التَّعسُّفُ ؟

ولي فوقَ أسْماكِ المجرَّةِ منزلٌ وفي موقِفِ الزُّهْرِ الكواكبِ موْقِفُ

الرَّضي في البيتِ الأوَّلِ يفْخَرُ ، والمُرْتضي يَسْخَرُ ! وأينَ الرَّضي من أخيهِ في البيتِ الثَّاني ؟ إذ يُوحي بيتُهُ أنّهُ لمْ ينَلْ شيئاً من ظَهْرِ الكواكبِ والمُرْتضى بنى منزلاً طويلَ النَّجادِ ، رحيبَ العمادِ ، وموقفاً يُصْبَى الحليمُ بحُسْنهِ، تأمّل قولَ الرَّضي: (لئِنْ نِلْتُ)، وقولَ أخيهِ: (ولي).

(٣)- رجال ، فهذا الرَّضي يقول:

تُفاخِرُنا رِجَالٌ ليسَ تَدْرِي بما عَلِمَ الجبانُ من الشُّجاعِ

ويقولُ المُرْتضى:

وعلىَّ تَسْتعلي الرِّجالُ وما يبدو لِعَيْني منهمُ رجُلُ

بيتُ الرَّضي دونَ بيتِ أخيهِ ؛ لأنَّهُ أتى بكلمة (رجال) نكرة ، وهُم حَمْقى ، ومن ثمَّ فلا مزيَّةَ في الفَخْرِ الملحوظِ في بيتِ المُرْتضى، إذ أتى بالكلمةِ في موضعِ (التَّعْريفِ) ، ورأى الرِّجالَ كالذُّبابِ ، وعلى هذا فلا ماجدٌ فيهم يومَ الفَخَارِ ولا مُمجَّدٌ. وهذه هي الدَّوافعُ التي انفردَ كُلٌّ بها:

(أ)- دَوَافِعُ الرَّضي:

***- المرأةُ ، إذ يقولُ:**

لئِنْ كُنْتُ مَجْهُولاً بِذُلِّي في الهَوى فإنِّي بِعِزِّي عنْدَ غيركِ أعْرَفُ

فلا تَعْجبي أنِّي تعرَّقني الضَّنى فإنَّ الهَوَى يَقْوى عليَّ وأضْعُفُ

هذهِ هي النَّفْسُ البشريَّةُ أمامَ الهَوَى، فالرَّضي القائِلُ:

ما شُدَّ لي يَوْماً على ذُلٍّ ، ولا طمعٍ حِقَابُ

والقائِلُ:

ما زالَ عَزْمي لىَ عَنْ دَارِ الهَوانِ مُبْعِدَا

ها هو ذا يُعْجِزهُ ظَبْيٌ مُسلَّطٌ على القُلوبِ، ظَبْيٌ اقْتَادَ زِمَامَهُ...بيَّضَ قلبهُ، وأحْنَى ظَهْرهُ ، فلم يَعُدْ يملكُ إلا الشَّكْوى... شَكْوى امرأةٍ لم تُصالحُهُ ، فأفردتُهُ بالهمِّ والجُرْحِ ، همٌّ وجُرْحٌ دفعاهُ إلى أن يقول:

أبْلِغْ ظِباءَ الحيِّ أنَّ فُؤادَهُ قَطَعَ العَلاقةَ ، وارْعَوَى للزَّاجرِ

لا شكَّ أنَّ قولَهُ : (وارْعَوى للزَّاجِرِ) يُوحي بأنَّ أحداً تَلا عليهِ قصائِدَ فخْرِهِ ، ذكَّرَهُ بمكانتهِ...بآلِ بيتهِ ، أحداً نصَحَهُ فانْتَصَحَ. ولم يكُنْ المُرْتضى كأخيهِ بإعلانهِ لنا... لِكُلِّ النِّساءِ عنْ موقفهِ من البدايةِ حينَ قالَ:

ولا تَقْتادُوني بُرحاءُ وَجْدِي إلى ذاتِ القَلائدِ والسِّخابِ

فَقُلْ لصقيلةِ الخدَّينِ حُسْناً دَعِيني منْ ثَنَاياكِ العِذَابِ

فمالي فوقَ جِيْدِكِ منْ عِنَاقٍ ومَالي منْ رُضَابكِ منْ شَرابِ

وقالَ:

ولَمْ تَقُدْني في حِبَالِ الهَوى مَحَاسِنُ البهْكَنَةِ الطَّفْلةِ

والمُعْجِبُ عِنْدِي أنَّ المُرْتضى لم يجرُّهُ هَوَى النِّساءِ لا في نشاطِ الشَّبابِ ، ولا حينَ نَضَجَ ، نلمحُ هذا في قولهِ:

لا فَرْقَ بُعْداً مِنْ رُكوبِ الهَوى بينَى في الكِبْرَةِ والشِّرَّةِ

وعُدْ إلى قولهِ: (ولا ، ولَمْ) ، وقولهِ: (فَقُلْ ، دعيني ، فمالي ، ومالي) تجدُهُ لا يُعاني مُغالبةَ الهَوى ....لا يُؤرِّقُهُ أو يُقْلِقُهُ فَقْدُ النِّساءِ ، أنَّى هذا وهو أبْهَى وأمْلَحُ.

***- الجاهل، إذ يقولُ :**

يصُولُ علىَّ الجَاهِلُونَ وأعْتَلي ويُعْجِمُ فيَّ القائِلُونَ وأُعْرِبُ

ويقولُ:

وجاهلٍ نالَ منْ عِرْضِي بلا سببٍ أمْسَكْتُ عنهُ بلا عَيٍّ ولا حَصَرِ

***- العائب ، كأن يقول:**

يا أيُّها العَائِبُ لي جَهْلَةً حَذَارِ منْ أرْقَمِي الرَّاصدِ

***- الدَّنيّ ، كأن يقول:**

أعليَّ يَسْتلُّ الدَّنِيُّ لِسَانَهُ سيذوقُ مَوْبىَ مَرْبَعِي ومصِيْفى

***- العّادِي ، إذ يقول:**

قد قُلْتُ لِلْعَادِي علىَّ ببغيهِ مَهْلاً فما يَلْحُوا القَتَادةَ لاحِي

لعلَّكَ لاحظتَ أنَّ نَفْسَ الرَّضي تختلفُ من دافعٍ لدافعٍ، إذ هو في البيتِ الأوَّلِ يَعْتلي على (الجُهَّالِ)، وفي الثَّاني يُمْسِكُ عنِ (الجاهِلِ)، وفي الثَّالثِ يُحذِّرُ (العَائِبَ)، وفي الرَّابعِ يُهدِّدُ ويتوعَّدُ (الدَّنيَّ)، وفي الأخيرِ كان حليماً بـ (العّادِي) حينَ قال لهُ: (مَهْلاً). ولا أرتابُ في أنَّ هذا الاختلاف يعودُ إلى تَقْديرِ الرَّضي لموقفِ العائبِ، وإلى ما يراهُ في عينهِ من جِدٍّ أو هَزْلٍ، وما يترتَّبُ على ذلك، ناهيْكَ عن حالتهِ النَّفْسيَّةِ ساعةَ قولِ العائبِ، فقد يكونُ مُنْفعلاً مُغْضباً فَيُرْمَى العائبُ بقاصمةٍ كالموتِ، وقد يكونُ هَشَّاً بَشَّاً، فنراهُ أرقَّ من النَّسيمِ، وأعْذبَ من حبَّاتِ النَّدى.

وأحسبُ أنَّ من دفعَ هؤلاءِ إلى التَّطاوُلِ على الرَّجلِ هو ما وصلَ إليهِ من العُلا والنِّعْمةِ، تقولُ بهذا قصائدُ الفخْرِ، وتقولُ أيضاً بأنَّ الرَّضي كان يُغلِّبُ الحِلْمَ والرِّفْقَ بهؤلاءِ العائبين، بل ويتحمَّلُ هناتَهُم ، ممَّا أدَّى إلى الطَّمعِ فيهِ، والتَّطاوُلِ عليهِ، ولكَ أن تقرأ قولهُ:

يَرَوْنَ احتمالي غُصَّةً ويزيْدُهُمْ لواعِجَ ضَغْنٍ أنَّني لسْتُ أغْضَبُ

(ب)- دوافِعُ المُرْتضى:

***- الحُسَّاد ، فها هو ذا يقولُ:**

فالآنَ قُلْ للحاسدينَ تنازَحُوا عن شَمْسِ أُفقٍ غير ذاتِ كُسُوفِ

وارْضَوْا بأنْ تمشُوا ولا كرمٌ لَكُمْ في دارِ مَجْدِ الأكرمينَ ضيوفي

***- الغبيُّ، إذ يقول:**

فَقُلْ للَّذي يبغي لِحَاقِي غَبَاوةً أفي غيرِ فَحْمٍ أنْتَ دهركَ تنْفُخُ ؟

وما أنتَ إلا يَرْمَعَ الدَّوِّ كَارِعٌ وإلا فغرثانٌ ولا نارَ يَطْبُخُ

***- قصيرُ الخُطى، كأن يقول:**

يرومُ شأْوي وقد عزَّ اللِّحاقُ بهِ طَمَاعةٌ من قصيرِ الخطْوِ عثَّارِ

أضَلَّهُ اللُّؤْمُ عن ذمِّي وجنَّبهُ خُمُولُهُ وَقْعَ أنيابي وأظْفارِي

نُلاحِظُ أنَّ المُرْتضى غيرُ أخيهِ ؛ لأنَّنا نراهُ لا يسْكُتُ ولا يحلمُ أمامَ عيْب العائبِ، ومن ثمَّ يندفعُ إليهِ كالصَّوارمِ تخْتَطِفُهُ وتَسْتَلِبُهُ، أرأيتَ قولهُ: (ولا كرمٌ لكُمْ، أضلَّهُ اللُّؤمُ، جنَّبهُ خُمُولُهُ، يَرْمعَ الدوِّ ، كارعٌ)، إنَّها ألفاظٌ جارحةٌ ، وكأنِّي بالمُرْتضى لا يطبقُ المعايبَ ؛ لا سيَّما وأنَّهُ لم يتجاوزْ في حقِّ غيرهِ ، فلماذا يعيبهُ غيرهُ وهو دونهُ ويسكتُ عنهُ وهو القادِرُ عليهِ. ويختلفُ المُرْتضى عن أخيهِ أيضاً في مجيء الفعل (قُلْ) بكثرةِ ملحوظةٍ في هذا الجانبِ، وهو يأتي مسبوقا بـ (الواو ، والفاءِ)، ويأتي بدونهما ؛ للدِّلالةِ على زَجْرِ العائبِ ، وإشعارهِ أنَّهُ دونهُ ، ومن ثمّ كان عليهِ أنْ يَرْعَوي.

المبحثُ الثَّالثُ

خصائصٌ فنيّـَةٌ

(أ)- مقدّمةُ القصيدةِ :-

وقفْتُ في مقدّماتِ كلا الأخوينِ على طرائقَ قدداً تدلُّ على بديع الفنِّ ، وخصائصِ الإلهام، وخفايا النّفْسِ الشّاعرةِ ؛ لا سيّما في مقدّمة القصيدةِ الفخريَّةِ، وهذا ليس بغريبٍ على الشَّريفينِ ؛ لعلمهما بأنّ المطلعَ القصائديَّ قد شَغَلَ النّقّادَ شُغْلاً واضحاً، بل نالَ من اهتمامهم ما لم تنلهُ باقي العناصر القصائديّةِ الأُخرى، بالإضافةِ إلى أنّ " المطلعَ أوّل ما يُواجهُ السّامعَ من القصيدةِ ، وهو بهذا الاعتبار يحتلُّ الأهميّةَ الأولى من عناصرها ، ولابدَّ أنّ الشّاعرَ يُراعي ذلك، فهو بمثابة العنوان للقصيدةِ أوْ المدخلِ إليها، ولذلك نلاحظُ أنّهُ يُحاولُ أن يحشدَ فيه أجودَ ما لديهِ من معانٍ، وحسن صياغةٍ "[1] ، وهذا ما نستكشفهُ في النّقاطِ التّاليةِ :

(١)- أسْماءُ المرأةِ:

كثيرةٌ هي أسْماءُ المرأةِ في شِعْرِ الأخوينِ ، ولكنَّ مُمْعِنَ النَّظرِ في هذا البابِ عندَ الرَّضي لا يجدهُ يذكُرُ أيّاً منها ، وهو في هذا غيرُ أخيهِ الّذي أتى بالأسْماءِ التَّاليةِ:

(أ)- هندُ ، كأن يقول:

يا هندُ إنْ أنْكَرْتِ لونَ ذوائبي فكما عهِدْتِ علائقي وطَرَائقي

(ب)- أسْماءُ ، إذ قال:

كتمْتُ منْ أسْماءَ ما كانَ عَلَنْ يومَ طُلولٍ ورسُومٍ وَدِمَنْ

---

١ ـ مطلع القصيدة العربيّة ودلالته النّفْسيّة د/ عبد الحليم حفْني ص٣ ط الهيئة المصريّة العامة للكتاب ١٩٨٧ . وانظر : الشّعراء وإنشاد الشّعر / على الجندي ص ١٣٧ ط دار المعارف ١٩٦٩م .

(ج)- جُمْلُ ، كأن يقول:

يا جُمْلُ لا أبصرني بعدها أرْنُو إليهِ وجْهُكِ المُشْرِقُ

هذه هي الأسماءُ ، وأراها يصْدُقُ فيها قولُ الحقِّ: (إنْ هيَ إلا أسْماءٌ سمَّيْتُموهَا). وأحسبُ الشُّعراءَ ذهبُوا هذا المذهبَ لضرورةٍ يقْتَضيهَا فنُّ (الغزلِ) الّذي يحلو ويحلو بهذهِ الأسماءِ ، ولا إثمَ عليهِ أنْ كانتْ صادقةً أمْ كاذبة. ولمْ يفُتْ الأخوانِ أنْ يصفَا المرأةَ بعدَّةِ أوْصَافٍ نذكرُ منها:

***- الغزالُ ، كأن يقول الرَّضي:**

هَلْ ناشِدٌ يَنْشُدُ لي ذاكَ الغَزَالَ الأغيدا ؟

ويقولُ أخوهُ:

وما كانَ عنْدِي أنَّ قلبي يصيدُهُ بمقلتهِ ذاكَ الغزالُ الأغيدُ

في البيتينِ مُقابلةٌ مُعْجبةٌ ، فالرَّضي يودُّ من المرأةِ أيَّ شيءٍ ولو ريقها ، والمُرْتضى لا يُصدِّقُ اصطيادهَا لهُ بمقلتها. وكلاهُما نعتَ (الغزالَ) بنعْتٍ مُعْتادٍ في البيتِ الأوَّلِ ، قليلٍ في البيتِ الثّاني. ورأيتُ الرَّضي لا يملُّ الاستفهامَ بـ (هل) في هذا الوصْفِ دونَ غيرهِ، إذ قال:

وهلْ مُطْمِعي ذاكَ الغزالُ بلفتةٍ ..... ؟

وقال:

فهلْ لِيَ والمطامِعُ مُرْدياتٌ دُنوٌّ منْ لَمَى ذاكَ الغَزالِ ؟

ونراهُ يبدو كالمحرومِ من عَسَلِ هذا الغزالِ .

***- الظَّبيُ ، إذ يقولُ :**

وبينَ ذوائبِ العُقداتِ ظبيٌ قصيرُ الخطْو في المِرْطِ المُذالِ

ويقولُ أخوهُ:

أين ظبيٌ عهدتهُ في نواحيـ ـكِ دَخُولاً حبَّ القُلوبِ هَجُوما ؟

ظبيُ الرَّضي حاضرٌ ، وظبيُ أخيهِ غائبٌ. وما أجملَ قولهُ: (دَخُولاً حبَّ القُلوبِ هَجُوما) ، إذ يُوحي بأنَّ جمالَ هذهِ المرأةِ تتعلَّقُ بهِ العُيُونُ والقُلوبُ. وهناكَ أيضاً: (الشَّادنُ ، والحسناءُ ، والغانيةُ ، والرُّودُ). وكلاهُما صوَّرَ المرأةَ بصورةٍ حسنةٍ، إذ قال الأوَّلُ:

كأنِّي أُداري مُهْرةً عربيَّةً

وقالَ الثّاني:

أهوى من الحيِّ بَدْراً يطْلَعُ لي يوماً وظبيَ فلاةٍ ليتهُ سَنَحَا

أحسبُ صورةَ المُرْتضى تائهةً في البريَّةِ مُقارنةً بصُورةِ أخيهِ ، إذ لا مَعْنى لأنْ تطلعَ المرأةُ لهُ يوماً ثمّ تختفي ، أوْ لا تَسْنحْ.

(٢)- الشَّكْوى:

فنُّ (الشَّكْوى) من الفُنُونِ المُصاحبةِ لفنِّ (الفَخْرِ) في شِعْرِ الشَّريفينِ، ولهُ عِدَّةُ أشكالٍ هي:

(أ)-شَكْوى الدَّهْرِ:

الحديثُ عن الدَّهْرِ لا يكادُ يخْلُو منهُ ديوانٌ ؛ لا سيَّما في الشِّعْرِ العربيِّ القديمِ ، وأمْرُهُ عجيْبٌ في عُيُونِ مَعْشَرِ الشُّعراءِ ؛ لأنَّ منهُم من يراهُ جبَّاراً فاتكاً، ومنهُم مَنْ يسحبهُ كالبعيرِ ؛ لقدرتهِ عليهِ، ولكنَّ النَّظْرةَ الغالبةَ عندَ جُلِّ الشُّعراءِ تقولُ بأنَّ زِمَامَهُم بكفِّ الدَّهْرِ ؛ لأنّهُ البطلُ الأبيُّ، والعدوُّ الغالبُ...عدوٌّ دَميتْ من ناجذهِ أنامِلُ الشُّعراءِ، ومن هؤلاءِ هذينِ الأخوينِ ، فإليكَ ما كانَ منهما:

(١)- شَكْوى الدَّهْرِ في عيْنِ الرَّضي :-

الدَّهْرُ في عيْنِ الرَّضي (خليعُ اللِّجامِ) إذ يقولُ:

هُو الدَّهْرُ فينا خليعُ اللِّجام فَطَوْراً يُغِيرُ، وطوْراً يُحَامي

و (مالكٌ للأزمَّةِ) :

زِمَامِي بكفِّ الدَّهْرِ أتْبَعُ خَطْوهُ ومَا الدَّهْرُ إلا مَالكٌ للأزمَّةِ

و (ظالِمٌ):

مَشَى الدَّهْرُ بيني وبينَ النَّعيـ ـمِ ظُلْماً ، وغيَّرَ مِنْ حَالِيَهْ

تأمَّل قولهُ: (هو الدَّهْرُ، زِمَامِي بكفِّ الدَّهْرِ، مَشَى الدَّهْرُ) وكأنِّي بهِ تحملهُ هِمَّةٌ مُحْكمةٌ تجبُّراً على الرَّضي.. هِمَّةٌ لا تعتذِرُ عنِ الجُرْمِ. والفعلُ (مَشَى) يرسِمُ صُورةً بديعةً للدهرِ وهو يَمْشي هُنا وهُناكَ يُخرِّبُ على الرَّجُلِ نُعْماهُ...يتعقَّبُهُ في كُلِّ مَجْلسٍ كالقرينِ، يتكفَّلُ بإلباسهِ لباسَ الفَقْرِ، وكأنَّ أحداً أمْلا عليهِ كُرْهَهُ.. أمْلا عليهِ اكْتِحَالَ عين الرَّضي بالحُزْنِ،... وها هو ذا قد أفلح، نلمحُ ذلك في قولِ الرَّضي: (وغيَّرَ حاليهْ). والشَّطْرُ الثَّاني من البيتِ

الأوَّلِ يقولُ بأنَّ الدَّهْرَ مُتقلِّبٌ كالبحْرِ، فتارةً يلينُ تواضُعاً، وتارةً يُعْرِضُ مُعْتكِراً يَزْرعُ الضَّررَ بفأسِ الشَّرِّ. ولعلَّنا لاحظْنا طاعةَ الرَّضي للدَّهرِ، لا سيَّما في قولِهِ: (أتْبَعُ خَطْوهُ) الذي أراهُ يُناقِضُ قولَهُ من القصيدةِ ذاتها:

فما حدثانُ الدَّهْرِ عنْدِي بفَاتكٍ ولا جِنَّةُ البقَّارِ عِنْدي بجنَّةِ

وعداوةُ الرَّضي للدَّهْرِ تبدو في موضعٍ آخرٍ في الدُّعاءِ عليهِ بـ (القتْلِ) ؛ لأنَّهُ لا يدَّخِرُ العُدْمَ إلا لهُ ، ولأنَّهُ أعْمَى وأصمّ..دَهْرٌ طويلُ الذِّراعينِ، مَطْبوعٌ على الغَدْرِ، مُحْتالٌ.

(٢)- شَكْوى الدَّهْرِ في عيْنِ المُرْتضى:

الدَّهْرُ في عيْنِ المُرتضى (مُجْرِمٌ)، كأن يقول:

لَقلَّ غَنَاءُ العَتْبِ والمُجْرِمُ الدَّهْرُ

و (غَادِرٌ)، إذ يقولُ:

وهوَّنَ ما أَلْقَى من الدَّهْرِ أنَّهُ تعمَّدني بالغَدْرِ فيمن تعمَّدَا

و (أعوجٌ جائرٌ)، كأن يقول:

مَنْ مُنْصِفي مِنْ حُكْمِ أعْوَجَ جَائرٍ أعْيَتْ نُعُوتُ خِصَالهِ المنْطيقا ؟

المُرْتضى كأخيهِ ..يقفُ عاجزاً أمامَ الدَّهْرِ المُذمَّمِ صَرْفُهُ..يقفُ كثيرَ الشَّكْوى والعتابِ، يبدو لي هذا من خلالِ هذا الكمِّ الكبيرِ من الأسئلةِ التي تحتاجُ إلى إجابةٍ وما مِنْ إجابةٍ ! تأمّل: (مَنْ مُنْصِفي ؟ مَنْ عَاذِري ؟ مَنْ عَذِيري ؟ حتّى متى ؟).

وأحسبُ الرَّضي كانَ أسبقَ من أخيهِ ؛ لأنّهُ جَعَلَ الدَّهْرَ لا عَمَلَ لهُ إلا تعقُّبه بالغضبِ، فيصبحُ ويُمْسي حابساً مواهِبَ عَدَاوتهِ عليهِ ، والمُرْتضى خالفَ هذا في بيتهِ الثّاني.

وفي اعْتِقَادِنا أنَّ الصُّورةَ في بيْتِ الرَّضي الأوّل كالصُّورةِ في بيْتِ المُرْتضى الأخيرِ، فالدَّهْرُ في عينهما ضليلُ السَّعْي، غشومٌ، سلَّطَ يدَ القَهْرِ. ويبدو أنَّ المُرْتضى مُعْجبٌ بهذهِ الصُّورةِ ؛ لأنَّني وجدتُّه يُكرِّرها في أكثرِ من موضعٍ، إذ قالَ:

صحبتهُ أعْوجَ لا يَنْثني ومُعْجلاً بالشرِّ لا يَرَفُقُ

وقال:

مَنْ عَذِيري من الزَّمانِ أخي عَوْ جَاءَ أعْيا عليَّ أنْ يَسْتَقِيْمَا

وصورةُ الدَّهْرِ المُعوجِّ أراها عزيزةً في هذا البابِ ؛ لأنَّ عيني لم تقَعْ لها على نظيرٍ فيما كتبَ الشُّعراءُ. ورأيتُ كلا الأخوينِ يأتى بألفاظٍ مُرادفةٍ للدَّهرِ، ألفاظٍ تدلُّ على كُرْههِ وامتعاضهِ من مثل: (النَّوائبِ، الحادثاتِ، الأيّامِ، اللّيالي، الزّمنِ //الزَّمان) كما في البيتِ السَّابقِ، وفي قولِ الرَّضي:

ومَنْ لي بتقبيلِ كفِّ الزَّما ن مِنْ قبلِ توقيعها باطِّراحِي

ونراهُ قد استعارَ للزمنِ (كَفّاً) ، وودَّ أنْ يُقبِّلها قبلَ أن تُوكِسَ حياتَهُ، واستعارَ لهُ أيضاً (ناباً) يَعْرِقُنا كشَجَرِ العضَاةِ ، وهُما صُورتانِ بهيَّتانِ عريقتانِ في عُيُونِ الشِّعْرِ والشُّعراءِ.

(ب)- شَكْوى الحُبِّ:

طريقُ الحبِّ نارٌ لا تَنْطفي، وماءُ مدامعٍ لا ينْضُبُ في عيْنِ الأخوينِ...طريقٌ قالَ بأنَّ الحبيبةَ هي الطَّليقةُ..المُتحكِّمةُ، وهُما أسيرا شَجْوٍ، حليفا هَجْرٍ وَوَلهٍ... رَكِبا في الحبِّ مركباً تمخَّضَ عن الآتي:

(١)- الشَّوقُ، فها هو ذا الرَّضي يقولُ:

وإنِّي للشوق منْ بَعْدهم أُرَاعِي الجَنُوبَ رَوَاحاً وَمَغْدَى

ويقولُ:

يُرنِّحني إليكَ الشَّوْقُ حتّى أميْلُ منَ اليمينِ إلى الشَّمالِ

ويقولُ المُرْتضى:

لمْ تعرِفُوا شَوْقاً فلم تأْووا لمن يُضْحي ويُمْسي نَحْوكُمْ يتشوَّقُ

أينَ المُرْتضى من أخيهِ ؟ هذا شوقُهُ غالبٌ، وعزْمُهُ مَغْلوبٌ، وهو شوقٌ أذْوى نَضَارتهُ..صيَّرَهُ كالمُعَاقِرِ عاودتهُ حُميَّا الكأْسِ، نلمحُ ذلك في الفعْلِ: (يُرنِّحني). واعْجَبْ لهُ في الشَّطْرِ الثَّاني من البيتِ الأوَّلِ، وكأنَّنا بهِ يَسْألُ كثيبَ الرِّمالِ..رياحَ الجنُوبِ..يَسْألُ كلَّ ركْبٍ عن امْرأةٍ عذَّبتهُ، امْرأةٍ مُنْفردةٍ بالجَمَالِ، بيضاءَ كالنَّهارِ يَنْشَطُ لذكرها كما ينشطُ الأسيرُ من العِقَالِ.

(٢)- الهَوَى ، فهذا الرَّضي يقولُ:

فأضْعَفَنا عَنْ حَمْلِ أسْيَافِنَا الهَوى ونقَّضَ مِنَّا مُبْرَماتِ العّزَائمِ

ويقولُ المُرْتضى:

قد كُنْتُ جَلْداً في الهَوى لكنَّني يومَ الفِراقِ عليهِ غَيْرُ جليْدِ

لا شكَّ أنَّ شَكْوى الحُبِّ في بيْتِ الرَّضي أقْوى وأعْمَقُ ؛ لأنّهُ هدَّ ظَهْرَهُ، وأتلفَ عَزْمَهُ... أضعفَهُ في كُلِّ وقْتٍ...أخَّرَهُ في ميْدانِ الكريهةِ، في حين أضعفَ المُرْتضى (يومَ الفراقِ) فقط. والفعلُ (نقَّضَ) يُوحي بأنَّ الحبَّ استلَّ من الرَّضي كُلَّ عظيمٍ مُجوَّدٍ، بل وأبقاهُ نزيلَ المذلَّةِ والعَارِ. واللافتُ للنَّظرِ أنَّ الرَّضي الذي أنْهَكَهُ الحبُّ لم يدعو على من أحبّ بخلافِ أخيهِ القائل:

يا قاتلَ اللهُ اللَّواتي باللِّوى أوْرَطْننا حُبَّاً وهُنَّ نَواجِ

هذا الدُّعاءُ يُشيرُ إلى ضَعْفِ قلبِ المُرْتضى. وهو يُناقِضُ قولهُ السَّابق ؟

فلسْتُ أحِنُّ والبيضاءُ عِنْدي إلى البيضَاءِ والرُّودِ الكَعَابِ

ولا تَقْتادُني بُرحاءُ وَجْدِي إلى ذاتِ القلائدِ والسِّخابِ

وعلى هذا فالحبُّ كالدَّهْرِ في عيْنِ الأخوينِ، حبٌّ لم يَبْرَدْ لهُ كبدٌ ؛ لأبوابهِ المُغْلقةِ.

(٣)- البينُ ، فهذا الرَّضي يقولُ:

يا قلبُ جدِّدْ كَمَدَاً فمَوْعِدُ البيْنِ غَدَا

ويقولُ المُرْتضى:

رحلُوا فليسَ ترى على آثارهم إلا دُمُوعاً ذُرَّفاً وغريقا

الرَّضي يَشْكُو بيْنَاً لم يقَعْ، والمُرْتضى يَشْكُو بيْنَاً وقَعَ، فهذا أدْخَلُ في الشَّكْوى. والطَّريفُ أنِّي وجدتُّ البينَ يُخْلِفَ الرَّدى على الرَّضي، والدُّموعَ على أخيهِ ، إذ قالَ الأوَّلُ:

لم أرَ فَرْقاً بَعْدَهُمْ بينَ الفِرَاقِ والرَّدى

وقال الثّاني:

لمْ يبْق منِّي بعْدَ يومِ فِراقِكُمْ إلا دموعٌ للفراقِ تسيلُ

ورأيتُ المُرْتضى يُكرِّرُ هذا المَعْنى كثيراً في هذا البابِ. ورأيناهُ في الحديثِ عن الحبِّ يدعو على من أحبَّها بالقتْلِ، وها هي ذي تَرْميهِ بـ (الخيانةِ) في الودِّ ظُلْماً على حدِّ قولهِ:

رَمتْني بالخيانةِ في ودادي وكنتُ على مودَّتها أمينا

(٤)- الصدُّ والمَطْلُ، كأن يقول الرَّضي :

يا مُنْجزاً وَعِيْدَهُ وماطلاً ما وَعَدَا

ويقولُ أخوهُ:

لي فُرْقتانِ ففُرْقةٌ بيدِ النَّوى أوْ فُرْقةٌ لِتَجَنُّبٍ وصُدُودِ

شَكْوى المُرْتضى أشدّ ؛ لأنه يُعَاني فرقةَ النَّوى، وفرقةَ الصُّدودِ والهَجْر. وأرى المُقابلةَ في بيْتِ الرَّضي تخلعُ عليهِ لباسَ الجمالِ، فالمُنادى يُنْجزُ الوعيدَ، ويُمْطِلُ الوعْدَ عَمْداً ؛ ليتعذَّبَ ويتلهَّفَ الرَّضي. ولعلَّها تتعمَّدُ هذا ؛ لِتَنْشُرَ خبرهُ هُنا وهُناكَ فيفْتَضِحَ على ألسنةِ الرُّواةِ، وأيدي الرِّكابِ وهو الّذي اشتملَ الدُّجى، وادَّرعَ الصَّوارِمَ والعَوالي.

(٥)- التَّمنُّعُ ، فهذا لرَّضي يقولُ:

تلذُّ عَيْني وقلبي مِنْكِ في ألمٍ فالقلبُ في مأتمٍ والعيْنُ في عُرُسِ

ويقولُ أخوهُ:

ماذا على مَنْ ضَنَّ دَهْراً بالنَّدى لو كانَ يوماً ضَنَّ بالأحْدَاجِ

ويقولُ:

قُلْ للتي ضنَّتْ علىَّ بنظْرةٍ ذاتِ اللِّمى واللؤلؤ المنْضُودِ

لِمْ تأسفينَ على المُحبِّ بقُبْلةٍ فكأنَّ ثَغْراً منكَ غيرُ بَرُودِ

نُلاحظُ أنَّ الرَّضي لمْ يُصرِّحْ بما يريدهُ ، والمُرْتضى أرادَ نَظْرةً ، وقُبْلةً ، وهوادِجَاً، ولكنَّهُما في النِّهايةِ لمْ يَصِلا إلى شيءٍ. وفي الأبياتِ جمالٌ لا يَخْفى، جمالٌ نراهُ في المُقابلةِ بينَ: (العينِ، والقلبِ)، فالعينُ في فرحٍ ؛ لأنَّها ترى جَمَالاً نَهْباً مُباحاً، جمالاً تُدْرِكهُ العينُ، ولا يُدْرِكهُ القلبُ، ومن ثمَّ فهو في مأتمٍ، ولم لا وحشْوُهُ ألمٌ. ونراهُ في (الاستفهامِ)، وفعْلِ الأمرِ (قُلْ)، إذْ أراهُما يقولانِ بأنَّ التَّمنُّعَ يقعُ في نَفْسِ المُرْتضى مَوْقِعَ الإبرِ. والمُعْجِبُ أنِّي وجدتُّ الرَّضي يُكْثِرُ من السُّؤالِ عن (الدَّارِ، والعَهْدِ)...يفرحُ بـ (الرَّكْبِ، والغيْثِ)...يُحيِّ صِباحَ الوُجوهِ...يَسْألُ (جنُوبَ الحِمَى) عن أرْضِ نجْدٍ...عن غرامهِ وهواه، وتلكَ سُنَّةُ الشُّعراءِ . والمُرْتضى خالفَ هذه السُّنّة بسنَّةِ التَّجاوُبِ مع (الحَمَامِ) الباكي حيثُ قال:

وقد شجيتُ بِقُمْرِيٍّ على غُصُنٍ باكٍ بلا أدْمُعٍ يجرينَ نوَّاحِ

وتلك أيضاً ظاهرةٌ مُعْتادةٌ ، عزَّ بها الشِّعْرُ.

(ج)- شَكْوى الشَّيبِ والشَّبابِ:

أولاً: شَكْوى الشَّباب:

النَّاظِرُ في شِعْرِ الشَّبابِ يراهُ يأتي مطيَّةً للوصولِ إلى قُلوبِ الغَواني، ويرتبطُ بدلالاتٍ مُعْجبةٍ تجذبُ البيضَ النَّواعمَ كالحسبِ والنَّسبِ، والصِّبا ، والشَّاعريَّةِ، وما إلى ذلك من أُمورٍ تدعو الشَّاعرَ إلى التَّباهي والتَّعالي. والشَّبابُ في شِعْرِ الشَّريفينِ أخذَ بُعْدينِ مُتضادَّينِ هُما:

(أ)– الغضبُ منه ؛ لِغَدْرِهِ ، **نلمحُ ذلك في قولِ الرَّضي:**

أغَدْراً يا زمانُ ويا شبابُ أُصابُ بذا، لقد عظُمَ المُصَابُ

وكونهِ (مطيَّةً للفاسقِ) ، هكذا يقولُ المُرْتضى:

ومُعيِّري شِيْبَ العِذَارِ وما دَرَى أنَّ الشَّبابَ مطيَّةٌ للفاسِقِ

الرَّضي يَشْكُو الزَّمانَ، ومن ثمَّ الشَّبابَ، والمُرْتضى يَشْكُو كُلَّ ناعمةِ الصِّبا. والاستفهامُ في البيتِ الأوَّلِ يُوحي بأنَّ (الغَدْرَ) لمْ يكُنْ يخْطُر على بالِ الرَّضي الذي أُصِيْبَ بالشَّيْخُوخةِ غَدْراً. ولاحظ دقَّتَهُ في ترتيبِ (الغَادِرِ)، إذ أتى بـ (الزَّمانِ) أوَّلاً ، لأنَّهُ شيءٌ كبيرٌ دونهُ الشَّبابُ. ولا يخفى علينا أنَّ الذي دفعَ المُرْتضى إلى رَمْي الشَّبابِ بكونهِ (مطيَّة الفاسقِ) هو التَّعْييرُ الآتي من الغانياتِ اللاتي قطَّعْنَ علائِقَهُ.

(ب)– الابتهاجُ بهِ ؛ **لأنَّهُ وسيلةُ العيْشِ الرَّطيبِ بينَ أحْضَانِ الحِسَانِ، أرأيتَ قولَ الرَّضي:**

وكنتُ أرى أنَّ الشَّبابَ وسيلةٌ لِمثْلي إلى بِيْضِ الخُدودِ النَّواعمِ

وقولَ أخيهِ:

كانَ شَبابي في الدُّمى وسيلةً ثمّ انقضَتْ لمّا انقضَتْ وَسَائلى

الغايةُ واحدةٌ. وأحسبُ قولَ الرَّضي (لِمثْلي) يطيشُ بالدقَّةِ ؛ للإيحاءِ بأنَّ أيّامَ شبابهِ كانت أيّامَ لهْوٍ ولعبٍ...أيَّامَ دَعْوةٍ لِمَعْشرِ الملاحِ. والمُرْتضى كان دقيقاً في قولهِ: (شبابي) ؛ لأنّهُ أضافَهُ إلى نَفْسهِ. وعنْدِي أنَّ واقعيَّةَ الأخوينِ زاحمت شاعريَّتهما في البيتين، واقعيَّةً ماثلةً تقولُ بأنَّ أيّامَ شبابهما ها هى ذي يدُ المشيبِ ترميها بعد أن كانت تَسْعى في اللّيالي ؛ طلباً للغَوَاني.

ووجدت للشَّبابِ مفاهيماً أُخْرى هى عندَ الرَّضي:

(أ)– النَّعيمُ، **كأن يقول:**

ويا مُعْطي النَّعيمِ بلا حسابٍ أتاني مَنْ يُقطِّرُ لي العطَاءَ

(ب)– الدُّجنَّةُ ، **كأن يقول:**

كان الشَّبابُ دُجنَّةً فتمزَّقتْ عَنْ ضَوْءِ لا حَسَنٍ ولا مألُوفِ

وعندَ المُرْتضى:

(أ)– الشَّفيعُ، **كأن يقول:**

إذْ قناتي مُمْتدَّةٌ وشَفيعي منْ شبابي إلى الحِسَانِ شفيعُ [1]

---

١ ـ قناتي : قامتي.

(ب)– الصَّديقُ، **فها هو ذا يقولُ:**

فلو أنَّني خُيِّرتُ يوماً خُلَّتي ما كنتُ إلا للشبابِ صَدِيقا

نَدَمُ الرَّضي على فَواتِ الشَّبابِ أبينُ . ونُلاحِظُ أنّه وقَعَ في تناقُضٍ بيِّنٍ، إذ كيف يُعْطيهِ الشَّبابُ (النَّعيمَ) في البيتِ الأوَّلِ وهو (دُجنَّةٌ) في البيْتِ الثّاني. والفعلُ (أتَاني) يُوحي بأنَّ الرَّضي قد دخَلَ في طُورِ المشيبِ، وأنّه مُتضايقٌ لهجمتهِ، مُتأسِّفٌ لحلولهِ، وآيةُ ذلك أيضاً أنِّي وجدتّهُ يأتي بألفاظٍ دالَّةٍ على بالغِ أساه ؛ لمجيءِ المشيبِ من مثلِ: (لهفي لأيَّامِ الشَّبابِ، واهاً على عَهْدِ الشَّبابِ، ألا أينَ ذاكَ الشَّبابُ). وفي بيتي المُرْتضى لا نلمحُ أيَّ ضيقٍ، وكأنِّي بهِ لا يُبالي بدليلِ أنِّي لم أجدهُ يتحسَّرُ على ذهَابِ الشَّبابِ، وحين تحسَّر عليهِ قال: (ذهبَ الشَّبابُ) ، وأين هذا الفعلُ من ألفاظِ الرَّضي ؟

ثانياً : شَكْوى الشَّيْبِ:

حديثُ الشَّيْبِ عندَ المُرْتضى أرْحَبُ وأوْسَعُ من أخيهِ ؛ لأنّهُ عندَ الرَّضي:

(أ)- ظالمٌ ، إذ قال:

شَبَابي إنْ تكُنْ أحْسنْتَ يوماً فقد ظلَمَ المشيبُ وقد أساءَ

(ب)- وطاردٌ ، كأن يقول:

ولَّى الشَّبابُ وهذا الشَّيْبُ يَطْرُدُهُ يَفْدِي الطَّريدةَ ذاكَ الطَّارِدُ العَجِلُ

وعندَ المُرْتضى:

(أ)- مُرْشدٌ ، إذ قال:

ضلَلْتُ عن الهُدى زمناً بسودِي فأرْشَدني المشيبُ إلى الصَّوابِ

(ب)- موْرِدٌ ، كأن يقول:

والشَّيْبُ إنْ فكَّرْتَ فيهِ موردٌ لا بُدَّ يُوردَهُ الفتى إنْ عُمِّرا

(ج)- زائرٌ ، إذ يقولُ:

قد زارني قبلكَ الشَّيْبُ المُلِمُّ ضُحىً فما هَشِشْتُ لهُ ما بينَ زُوَّارى

(د)- ضيفٌ ، كأن يقول:

مالكِ فيَّ ربَّةَ الغلائلِ - والشَّيْبُ ضيفُ لِمَّتي- مِنْ طائِلِ

(ه)- منزلٌ ، إذ يقولُ:

هو منزلٌ بُدِّلتُهُ مِنْ غيرِهِ وهو الغِنى في المنزلِ المألوفِ

نَظْرةُ المُرْتضى للشَّيبِ على أنّهُ ضيْفٌ هى نظرةُ ابن الرُّومي حين قال:

والشَّيبُ ضيفٌ لا يزالُ مُوكَّلاً بمعقَّةٍ ومساءةٍ لِمُضيفهِ

ولكنْ أينَ المُرْتضى من ابنِ الرُّومي ؟ فالشَّيْبُ عنْدَهُ ضيفُ لِمَّته : أيْ شَعْره، وهو عند ابن الرُّومي ضيفٌ ثقيلٌ مُؤْذي ، والمُعْجبُ أنّهُ لا يُؤْذيهِ فحسب، وإنَّما يُؤْذي كُلَّ من نزلَ بساحتهِ. ولنا أن نتأمَّل قولهُ: (مُوكَّلاً)، إذ يُوحي بأنَّ الشَّيبَ قد تعهَّدَ بعكننةِ وعقوقِ مُضيفهِ... و (لا يزالُ) بهِ حتّى يموت. ونلاحِظُ أنَّ نظْرَةَ الرَّضي للشيبِ نظْرَةٌ سوداويَّةٌ نمَّت عن عدمِ الرِّضا، نلمحُ هذا في قولهِ: (فقد ظلمَ المشيبُ وقد أساءَ)، وفي قولهِ: (ولَّى الشَّبابُ.....). وفي تأكيدِ الفعلينِ: (ظلمَ، وأساءَ) بـ (الفاءِ، والواو ، وقد)،

ومجيء الفعلِ (ولَّى) في الماضي ما يُوحي بحسْرةِ الرَّضي على الشَّبابِ ؛ لأنه طَوَى لذيذَ تمتُّعهِ ، ومثلُ ذلك لا نجدهُ عندَ المُرْتضى الّذي لم يمتعضْ من الشَّيبِ، بل نراهُ رَضِيَ بهِ، مُتقبّلاً مسَاءتَهُ، نلمحُ ذلك في قولهِ: (فأرْشَدني المشيبُ إلى الصَّوابِ)، وقولهِ: (هو منزلٌ.....). وحديثهُ عن الشَّيبِ محفوفٌ بالحكمةِ والعقْلِ ؛ لا سيَّما في بيتهِ الثّاني، وهو على الجملةِ مُعْجبٌ بالشَّيبِ مُرحِّبٌ ؛ لأنه على حدِّ قولهِ: (أملأُ للصُّدورِ)، ولأنه مُؤْمنٌ والشَّبابُ مُنافقٌ. ودافِعُ المُرْتضى إلى تقبُّلِ الشَّيبِ دافِعٌ خارجٌ عن إرادتهِ ، نلمحهُ في قولهِ:

وليسَ الشَّيْبُ من جهتي فأُلْحى ولا ردُّ الشَّبيبةِ في احْتِيَالى

وقولهِ :

لو كانَ لي حُكْمٌ يُطَاعُ أمْرُهُ حميتُ منهُ لِمَّتي واللِّمَمَا

وأحْسَبُ خبيئةَ نَفْسِ المُرْتضى تتّضحُ في قولهِ:

كَرِهْتُ الأربعينَ وقدْ تدانَتْ فمنْ ذا لي بردِّ الأربعينا

هذا البيتُ يذهبُ بعقلانيَّتهِ وحكمتهِ، يذهبُ بهما إلى القبرِ ؛ ليلتقي مع أخيهِ في الشَّغفِ بالشَّبابِ.

(٣)- الدُّعاءُ بالسُّقْيا:-

تعدَّدت صورُ السُّقْيا عندَ الشَّريفينِ على النَّحْو الآتي:

(أ)- سُقْيا المنزلِ، فهذا الرَّضي يقولُ:

سَقَى تُرْبَهَا حتى استثارَ خبيئَهُ سَقِيطُ رَذاذٍ وَرهَامِ

ويقولُ أخوهُ:

سَقَى اللهُ منزلنا بالكثيبِ بكفِّ السَّحائبِ غَمْرَ الحيا

كلاهُما يدعو لمنزلهما بالسُّقْيا، ولكن أينَ سُقْيا الرَّضي من أخيهِ الذي أجادَ في قولهِ: (غمْرَ)، إذْ يُوحي بانصبابِ الحيا انصباباً ، وأرى الجمْعَ في (السَّحائبِ) يزيدُ جمالَ البيتِ ؛ للإيحاءِ بأنَّ (الحيا) قد امتدَّ إلى كلِّ الدُّنيا. وتفوَّقَ المُرْتضى على أخيهِ مرَّةً أُخْرى حين جَعَلَ المنزلَ:

محلِّ الغُيوثِ، ومأْوى اللُّيوثِ وبحْر النَّدى، ومكانَ الغِنى

وفي بيتِ الرَّضي جمالٌ ملحوظٌ في قولهِ: (تُرْبها)، إذ يعودُ الضَّميرُ على منازلهم، وهي منازلٌ يرتاحُ إليها النَّظرُ ؛ لجمالها، واخضرارِ أرْضها، منازلٌ راقَتْ بها الأنواءُ كُلَّ صباحٍ، ورقَّتْ بها الأرواحُ كُلَّ ظلامٍ. وقريبٌ من ذلك سُقْيا (أرْضِ الحبيبةِ) في قولِ الرَّضي:

سَقَى اللهُ أَرْضاً جَاوزَ القَطْرُ رَوْضَها إذا المُزْنُ تَسْقي والأباطِحُ تَشْرَبُ

وسُقْيا (دِيَارها) في قولِ أخيهِ:

فيا دارَهُمْ سَقَّاكِ منْ شَعَفٍ بهم سِجَالاً من النَّوْءِ السِّماكينِ أوْطَفُ

أين الرَّضي من أخيهِ ؟ إذْ أرى بيتهُ يخلو من الدقَّةِ ؛ لأنَّهُ جعلَ القَطْرَ تجاوزَ أرضَ الحبيبةِ ، والمُرْتضى أرادَ السُّقْيا (سِجَالاً من النَّوْءِ السِّماكينِ أوْطَفُ)، وأجادَ مرَّةً ثانيةً حين قالَ: (سقَّاكِ)، فالتَّضْعيفُ في الفعْلِ

يُوحي بقوَّةِ وشِدَّةِ السُّقْيا. ولاحظ صَدْرَ بيتِ الرَّضي، إذ أتى بالجمْلةِ الفعليَّةِ الدَّالةِ على السُّقْيا، والفاعلُ (اللهُ)، وهذا ما ذهبَ إليهِ أخوهُ في بيتهِ السَّابقِ. وفي بيتِ الرَّضي صورةٌ رائقةٌ فائقةٌ تُطالعنا في الشَّطْرِ الثَّاني، فـ (المُزْنُ تَسْقي والأباطِحُ تَشْربُ) كأنَّها الأمُّ الحنونُ، وفي الفعلِ (تشربُ) إيحاءٌ بأنَّ في (الأباطحِ) شوقٌ وتوقانُ نَفْسٍ إلى الماءِ.

(ب)- سُقْيا القبرِ ، كأن يقول الرَّضي:

سَقَاكَ فكم ظمئْتُ إليكَ شوقاً على عُدَواءِ دَارِي واقْتِرابي

ويقول المُرْتضى:

فعلى قُبورهمُ وإنْ دَرَسَتْ ما شِئْنَ مِنْ قطْرٍ ومن وَبْلِ

وقفَ الرَّضي على قبرِ جدِّهِ بالطُّفوفِ، ووقفَ أخوهُ على قُبورِ أعْلامٍ مَشْهُورين بالكُوفةِ. وأحسبُ بيتَ الرَّضي بعيدٌ جدَّاً عن الدقَّةِ ؛ لأنَّ الكافَ في الفعْلِ (سقَّاكَ) تعودُ على (السَّرابِ)، والسَّرابُ لا يُسْتسقى ؛ لأنّه لا ماءَ فيهِ ، وممَّا أبعدهُ عن الدقَّةِ أيضاً أنَّ الرَّضي جعل (السَّرابَ) عوضاً عن (السَّحابِ) البخَّالِ بالمطَرِ، وإذن فالبيتُ قد خَلا من السُّقْيا ؛ ليتبقَّى فيهِ الشُّوقُ للحسينِ.

(ج)- سُقْيا الرَّبع ، فهذا الرَّضي يقولُ:

سَقَى دِرَرُ السَّحابِ صَدَى رُبُوعٍ بما يَظْما إليهنَّ المَزَارُ

ويقولُ المُرْتضى:

حُيِّيتَ يا رَبْعَ اللِّوى مِنْ مَرْبعٍ وَسُقيتَ أنديةَ الغُيوثِ الهُمَّعِ

أعتقدُ أنِّي ظلمْتُ بيتَ المُرْتضى حين قارنتُهُ ببيتِ أخيهِ ، فالأوَّلُ حيًّا (الرَّبعَ) ، وجعلهُ معلوماً، ثمّ عادَ فدَعَا لهُ بِسُقْيا ماذا ؟ إنَّها (أنديةُ الغُيوثِ الهُمَّع)، وهل هناكَ أحسنَ من هذا ؟ والرَّضي لم يُحِّ (الرُّبوع)، ولم يُحدِّدْ مكانها، وحين دَعَا بالسُّقْيا دَعَا لصداها فأساءَ ، وزادَ الطِّينَ بِلَّةً فأتى بكلمة (ربوع) في موضعِ التَّنْكيرِ ؛ لتصيرَ ربُوعاً مُبْهمةً.

(د)- سُقْيا القلبِ ، كأن يقول الرَّضي: (الطّويل)

سَقَى اللهُ قلباً بينَ جنْبَيَّ رَيُّهُ وما نافعٌ قلبي من الماءِ جَمُّهُ

ويقولُ المُرْتضى على الوزنِ ذاتهِ:

سَقْى اللهُ قلبي ما أعفَّ عن الهَوَى وأقْسَى على نأْي الحبيبِ وأجْلَدَا

قولُ الرَّضي: (سَقَى اللهُ قلباً) ذهبَ بالجمالِ الماثلِ في قولِ أخيهِ: (سَقَى اللهُ قلبي)، وأراهُ قد تداركَ هذا بقولهِ: (وما نافعٌ قلبي) . وفي البيتينِ مُقابلةٌ مُعْجبةٌ ، فقلبُ الرَّضي يُعَاني ظُلْمَ البهْكَناتِ، وقلبُ أخيهِ مُتبلِّدٌ ، عاصي. ووجدتُّ عندَ الرَّضي: (سُقْيا الرُّبى) في قولهِ:

ألا ليتَ أذيالَ الغُيوثِ السَّواجمِ تُجَرُّ على تلْكَ الرُّبى والمعالمِ

و (سُقْيا اليومِ) عندَ أخيهِ في قولهِ لأبيهِ:

تهنَّ يوماً سقَاكَ اللهُ من يدهِ غيثاً تروَّضَ منهُ مَنْبِتُ النِّعَمِ

أحسبُ كلا الأخوينِ غير مُصيبٍ ؛ لقولِ الأوّلِ: (ألا ليتَ)، وقول الثّاني: (تهنَّ يوماً)، فالتمنِّي يقولُ بأنَّ الرُّبى لا تَسرُّ ؛ لأنَّها تُحْرمُ السُّقْيا، تُحْرمُ النِّعْمةَ، وليتَ المُرْتضى قال: (تهنَّ دَهْراً) ؛ ليكونَ حظُّ أبيهِ من التَّهْنئةِ كبيراً ، جليلاً. وأرى فحولتهُ تبدو في قولهِ: (سقاكَ اللهُ من يدهِ غيثاً تروَّضَ منهُ مَنْبِتُ النِّعم)، فتلكَ إجادةٌ تامَّةٌ ؛ لجمالِ التَّعبيرِ، وروعةِ التَّصْويرِ، إجادةٌ كشفتْ طبيعتهُ في اختيارِ التَّراكيبِ التي يطمئنُّ لدقَّتها، وجمالِ إيقاعها.

(٤)- الطَّللُ:-

الطَّللُ في عيْنِ الأخوينِ مريضٌ لا يُجيبُ، طللٌ ضجيعُ البِلا، عبثتْ بهِ ريحُ الخَرَابِ..طللٌ لعبتْ بهِ نُيوبُ الأُسودِ ومخالِبُ الضَّوابثِ. وفي ندائهِ والوقوفِ عليهِ استخدمَ الأخوانِ بعْضَ الألفاظِ التي تُشيرُ إليهِ كالآتي:

(أ)- الطَّللُ، فهذا الرَّضي يقولُ:

على طللٍ كتوشيعِ اليَماني أمحَّ فخالطَ البيدَ القَواءَ

ويقولُ أخوهُ:

قِفَا بي على تلكَ الطُّلولِ الرَّثائثِ مُحِينَ بِنَسْجِ المُعْصراتِ المواكثِ

المعْنى واحدٌ في البيتينِ ؛ لأنَّ كلمةَ (أمحَّ) بمعْنى: بَلِيَ، و (الرَّثائثُ) بمعْنى (الباليات)، وكلُّ ما هُنالكَ أنَّ الرَّضي جاءَ بـ (الطَّللِ) مُفْرداً، إذ قال: (على طللٍ)، وجاءَ بهِ أخوهُ جَمْعاً في قولهِ: (على تلكَ الطُّلولِ) . وأرى قولهُ: (قِفَا بي...) كقولِ أخيهِ :

ورُبَّتَ ساعةٍ حبَّسْتُ فيها مَطَايَا القَوْمِ أمْنَعُهَا النَّجاءَ

فكلاهُما أوْقَفَ الرَّكبَ ؛ لتحيَّةِ الطَّلَلِ. وفي بيْتِ المُرْتضى تناقضٌ بيِّنٌ، إذ كيف تُوصفُ (الطُّلولُ) بـ (الرَّثائثِ) ثمَّ تُمْحَا (بنسْجِ المُعْصراتِ) أيْ : السُّحبُ الماطراتُ. وما جاءَ في البيتينِ السَّابقينِ قريبٌ ممَّا يأتي.

(ب)- الرَّبعُ ، كأن يقول الرَّضي:

أجِبْ أبُّها الرَّبْعُ تِسْآلنا فلسْتَ على بُعْدِهمْ مُتَّهَمْ

ويقولُ المُرْتضى:

مرابعٌ عُطِّلتْ منها وأنديةٌ لا رِجْسَ فيها ولا بأْسٌ لسمَّارِ

نُلاحِظُ أنَّ الرَّضي أتى بـ (الرَّبْعِ) مُفْرداً، وأتى بهِ أخوهُ جَمْعاً ، والفعلُ (أجِبْ) كالفعلِ (عُطِّلتْ) يقولانِ بأنَّ الرَّبعَ تمشَّتْ فيهِ يدُ العبثِ والوحْشةِ، فصارَ لذلكَ غيرَ مأْنُوسٍ ولا مأْهُولٍ. وأحسبُ بيتَ المُرْتضى يتفوَّقُ على بيتِ أخيهِ لقولهِ: (لا رِجْسَ فيها)، فهذه المرابعُ على كثرتها تنزَّهتْ عن الفواحِشِ ، والطَّريفُ أنَّها كذلك والعناكبُ والأشْبَاحُ تجِدُّ بها وتلعبُ. وهناكَ أيضاً لفظتي (الدِّمنِ ، والدَّار) والحديثُ فيهما كالحديثِ فيما سبق.

(ب)- البناءُ اللُّغويُّ:-

" الشِّعْرُ فنٌّ يُعبِّرُ باللُّغةِ ، فهى مادته الخام الأولى والأساسيّة الّتي يُبْنى بها ، ليس للشاعر سواها أداةَ بناءٍ ، وهى الوعاءُ الوحيدُ الّذي يُمْكنهُ حمل العاطفة والفكر إلى المُتلقِّي ، فالشّاعِرُ لا يجْمعُ ألفاظاً مُتجاورةً وحسب ، فليست اللُّغةُ هدفهُ ، بل إنّ عليه – عن طريق

بناءاتهِ الخاصّةِ ، ومقْدرتهِ الإبداعيّة على التّشْكيل- أن يُفتّقَ فيها مكْنوناتها كمادةِ بناءٍ ، وجمالٍ ، وعاطفةٍ ،وفكْرٍ ..... وغير هذا ، فكلُّ بناءٍ شِعْري يحْتوي هذه العناصر مُجْتمعة ، أو معظمها . فاللغةُ إذن هى أهم عناصر الإبداع الشِّعْري ، ودورها أكثر أدوار العناصر الإبداعيّة خطورةً في النّصّ الشِّعْري ، فهى تخلقُ القصيدةَ كشكْلٍ مُجسّدٍ أمام المُتلقِّي ، وهي ترسمُ صورها ، وهي تضعُ موسيقاها ، وعن طريقها ينْتقلُ المُتلقِّي إلى داخل جوّ التّجْربة الشِّعْريّة ، يُعايشها ، وينْفعلُ بها ، ويتفاعل معها عن طريق ما تبثّهُ من أجواءٍ وأبْعادٍ وظلالٍ وإيحاءاتٍ لصور التّجْربة وجوانبها . وهي من ناحيةٍ أُخْرى تمثِّلُ – إلى حدٍّ كبيْرٍ- أهم أسس التّمْييز والتّفاضل بين إمكانات الشّعراء حيث يرجع ميْلنا إلى شاعرٍ دون آخر مع تشابه نصّيْهما الشِّعْريين فِكْراً وانفعالاً إلى سببٍ من المعجم اللّغوي الخاص بكلٍّ منهما ، وإلى التّشْكيلات اللّغويّة الخاصّة الّتي يتشكّلها بنْيانهُ النَّصِّي ، وإلى البناءات اللّغويّة الخاصّة بكُلّ شاعرٍ ، والعلاقات الّتي يُقيْمُها داخل هذه البناءات ، وقُدْرتهُ على خلْق روْحٍ جديْدةٍ داخل تشْكيلات قديْمة ، وداخل بناءاته الخاصّة الّتي تُميِّزُ أُسْلوبهُ ".[1]

ودَرْسُ اللُّغةِ عند الشَّريفينِ يُبْرزُ دَوْرهَا البالغ الأهميّةِ الّذي يعكسُ الملامحَ الثّقافيّةَ الّتي شكّلتْ النّزعةَ النّفْسيّةَ لكليْهما ، ففي ذاكرتيهما حشْدٌ هائِلٌ من الموروثِ اللُّغويِّ المنوّع.

---

١ ـ عناصر الإبداع الفنّي في شعر ابن خفاجة د/ يحيي خاطر ص ٦٩ ط مؤسّسة الإخلاص ط١ / ١٩٩١ م .

ونزْعُمُ أنّهما في اجْترارهما هذا الموروث لم ينْسُجا على نَوْل من سبقهما ، وإنّما صنعا نصّاً شِعْرِيّاً يسْتلْهِمُ الخيالَ الخصبَ ، والوجدانَ الرّحبَ ، والمعطيات الجماليّة بقدرةٍ شاعريّةٍ متفرِّدةٍ على الاسْتلْهامِ ، والتّمثُّلِ ، والتّعْبيْرِ .ولمّا كانَ دَرْسُ اللُّغةِ عندهُما في حاجةٍ إلى دراسةٍ مُتعمّقةٍ آثرْتُ قطفَ بعض الظّواهرِ اللُّغويّةِ السَّارقةِ للعينِ ، وهي :-

(أ)- الغرابةُ:-

مالا كلا الأخوينِ إلى الغريبِ اللَّفظيِّ المُسْتمدّ من البيئةِ غالباً ؛ للدِّلالةِ على ثقافتهما، وقراءتهما للموْرُوثِ الشِّعْريِّ القديمِ ، كأن يقول الرَّضي:

نَهَرٌ يَسْقي يلنْجُوجاً وغارا .....

ويقولُ المُرْتضى:

طووْا رحيلَهُمُ عنِّي فنمَّ بهِ عَرْفُ اليلنْجُوجِ والجادِي إذا نَفَحَا

اليلنْجُوجُ: العُودُ يُتبخَّرُ بهِ، وهو من الألفاظِ الغريبةِ المُعْتادةِ عندَ بعضِ الشُّعراءِ . ومن ذلك قولُ الرَّضي:

كانُوا السَّحائبَ تَرْمي مِنْ كنائنها مقاتِلَ المَحْلِ كالْمُثْعَنْجِرِ الرَّذِمِ

وقولهُ:

بوهْوهةِ الخيلِ تحتَ الرِّماحِ

وقولهُ:

إنْ قطَعَ الرَّاعي عليها لَمْ تُبَلْ أشْبَعَهَا الخِذْرافُ أمْ أجاعها

المثعنجرُ: الماءُ السَّائِلُ ، والوهْوهةُ : صوتُ الفرسِ في آخرِ صهيلِهِ ، والخِذْرافُ : نبتٌ.

وهذا المُرْتضى يقولُ:

هزُّوا إلى الحميرِ عِطْفَىْ كُلِّ سَلْهبةٍ تبُذُّ كُلَّ سِراعِ الخيلِ بالخببِ

ويقولُ:

وقرِّبْ للنّجاءِ قَطَاةَ نَهْدٍ وإلا فالعُذافِرَةُ الأمُونا

السَّلْهبةُ: الطَّويلةُ من الخيلِ الجريئةِ ، والعذافِرةُ من النُّوقِ: العظيمةُ الشَّديدةُ. وهناكَ أيضا العجالطُ: جمعُ عجلطٍ ، وهو اللَّبنُ الخاثِرُ، والعِذْيُوط : وهو الّذي إذا أتى أهْلَهُ سَلَحَ ، أو أكْسَلَ. فأمثالُ هذهِ الألفاظ تنمُّ عن قدرتهما الإبداعيَّةِ على التَّشْكيلِ المُعْجَميِّ، والبناءِ اللُّغويِّ.

(ب)- السُّهولةُ:

استخْدَمَ الشَّريفانِ لُغةً أُخْرى سَهْلةً ميْسُورةً مَقْصُودةً ؛ للدَّلالةِ على الفَخْرِ كأن يقول الرَّضي:

لِسَانِي حَصَاةٌ يَقْرعُ الجَهْلَ بالحِجَى

ويقولُ:

ولي أنفٌ كأنْفِ اللّيثِ.....

ويقولُ:

يا قَدَمي دونكِ مَسْعاةَ العُلى

ويقولُ أخوهُ:

وتخصَّصْتُ بالمُلوكِ يُلبُّو نَ نِدَائي ويسمعُونَ كلامي

ويقولُ:

غِنِيٌّ بِنفْسِي عَنْ عَدِيْدي ومَعْشَرى

ويقولُ:

ولى النَّظَرُ السَّامي إلى كُلِّ ذرْوةٍ

فألفاظُ: (اللّسانِ ، والأنفِ ، والقدمِ ، والنِّداءِ ، والكلامِ ، والنَّفْسِ ، والنَّظَرِ) ألفاظٌ مُعْتادةٌ جاءتْ لهدفٍ شريفٍ ، وغايةٍ مَحْمُودةٍ. ومن السُّهولةِ استخدامُ كلا الأخوينِ ما يلي:

(١)– أسْماءُ الغزواتِ ، كأن يقول الرَّضي:

تَنُوبُ عنْ كُنْهِهَا مَعَارِفُهَا وفضْلُ بدْرٍ ينُوبُ عنْ أُحُدِ

ويقولُ المُرْتضى:

سَائِلْ بهم بَدْراً وأُحْداً والّتي ردَّتْ جبينَ بني الضَّلالِ مُعفَّرا

كلاهُما كانَ دقيقاً في ترتيبِ الغزوتينِ ترتيباً تاريخيّاً، فالأولى كانت في السَّنةِ الثّانيةِ للهجْرةِ، والثّانيةُ كانتْ في السَّنةِ الثَّالثةِ. ولا أرتابُ في دِقَّةِ الرَّضي في قولهِ: (وفضْلُ بدْرٍ ينُوبُ عَنْ أُحُد)، فضْلُ بدْرٍ في انتصارِ المسلمين على قُريش الغالبونَ في أُحد. والمُرْتضى أوْقعَ القارئ في إشكاليَّةٍ في قولهِ: (وأحْداً والّتي.....)، إذْ قد يُفْهَمُ منهُ أنَّ قريشاً انهزمتْ في أُحد، ولكنَّ الّذي يردُّ هذا الفهْمَ أنّه لم يَقُلْ: (وأُحْداً الّتي)، ومن ثمَّ أرى قولَهُ: (والّتي) إشارةً إلى غزْوةٍ أُخْرى غيرَ أحدٍ انتصرَ فيها المُسْلمون كالأحزابِ مثلاً.

(٢)– أسْماءُ القُصُورِ والمواضعِ ، **كأن يقول الرَّضي:**

سَقَى اللهُ البِطَاحَ وما تصدَّى لنا بينَ الخورْنق والسَّدير

ويقولُ المُرْتضى:

ولنا الحطيمُ وزمْزمٌ وتُراثُنا نِعْمَ التُّراثُ عن الخليلِ مُقامُهُ

فالخورنقُ والسَّديرُ: قصران معروفان ، والحطيمُ وزمزمٌ مواضع مُقدَّسة في مكَّة المُكرَّمة. وكلُّ ذلك سبق الإشارةُ إليه.

(٣)– أسْماءُ البلدانِ ، **فهذا الرَّضي يقول:**

أراكَ سَتُحْدِثُ للقلبِ وجْدَا إذا ما الظَّعائنُ ودَّعنَ نَجْدَا

ويقولُ:

طيِّبُوا الأرْدَانِ إنْ جالسْتَهُمْ قُلْتَ دَارِيُّونَ قد فضُّوا العِطَارا

ويقولُ أخوهُ:

باللهِ يا أيَّامَ يثْرِبَ عُودي

ويقولُ:

جنِّبُوها التَّعْريسَ حتّى تروها نازلاتِ بحضرموتِ جُثُوما

نَجْد: أحد أقاليم شبه الجزيرةِ العربيَّةِ التَّاريخيَّةِ وأكثرها مساحةً ، وتقعُ في وسط شبهِ الجزيرةِ العربيَّةِ ، وكانت موْطِناً تاريخيَّاً لمملكة كندة ، ودارِيُّون: نسبةً إلى دارين، وهى بلدٌ مشهورٌ بمكَّة ، ويثرب: الاسمُ السَّابقُ للمدينةِ المُنوَّرةِ ، وحضرموت: مملكةٌ عربيَّةٌ قديمةٌ قامتْ في اليمنِ.

(٤)– أسْماءُ القبائلِ ، **فهذا الرَّضي يقولُ:**

وأينَ يحيدُ عنْ مُضَرٍ عدوٌّ إذا زَحَرَتْ وعبَّ لها العُبابُ

ويقول:

فَخَرَتْ قَحْطانُ أنْ كانَ لها ذُو نُواسٍ وَكَلاعٍ وَرُعَين [1]

ويقولُ المُرْتضى:

وأنا الَّذي اسْتَوْطنْتُ ذِرْوةَ هاشمٍ وحللْتُ منْ عَدْنانَ في الأثْباجِ

ويقولُ:

ففَخْرَاً بنى فِهْرٍ بأنِّيَ منْكُمْ

١ ـ **من مُلوكِ اليمنِ المعروفين بالأذْواءِ.**

مُضَرٌ: قبيلةٌ عربيَّةٌ ، وهي أقربُ القبائلِ نَسَباً لبني تميم ، وقحطانُ وعدنانُ: قبيلتانِ مشْهُورتانِ من نِسْلِ نبيِّ الله إسماعيل عليه السَّلام ، وبنو فِهْرٍ: أشْهَرُ بُطُونِ قبائلِ قُرَيْشٍ.

(٥)– أسْماءُ الشُّعراءِ ، كأن يقولُ الرَّضي:

بزَّ زُهَيراً شِعْرِي وها أنا ذا لَمْ أرْضَ في المجْدِ أنَّهُ هَرِمُ

ويقولُ:

ويُعْجِبني البعَادُ كأنَّ قلبي يُحدِّثُ عَنْ عَدِيِّ بن الرِّقاعِ

ويقولُ أخوهُ:

فلو انَّ حاتمَ طيءٍ وقبيلَهُ وفدوا عليَّ تعلَّمُوا من جُودي [١]

في البيتينِ: (الأوّل، والثّالث) طرافةٌ بيِّنةٌ ، فالرَّضي بزَّ زهيرَ بن أبي سُلْمى في الشَّاعريَّةِ ، وبزَّ أخوهُ حاتم الطَّائي في الجُودِ والكرمِ.

(ج)- التِّكْرارُ:-

يُمثِّلُ التِّكْرارُ في شِعْرِ الأخوينِ ظاهرةً ضافيةَ الظِّلالِ ، وارفةً ، ولا عَجَبَ، فكلاهُما حينَ يُعْجَبُ بصُورةٍ ، أوْ كلمةٍ ، أوْ فعْلٍ ، أوْ حرْفٍ.....إلخ لا يتوانى في تكرارها ؛ للتأكيدِ على أنَّ الفَخْرَ مُتعلِّقٌ بهِ . وهذه صورهُ:

---

١ - زهيرُ بن أبي سُلْمى أحد أشهر شُعراءِ العربِ وحكيمهم في الجاهليَّةِ، وهو من المُقدَّمين على سائرِ الشُّعراءِ ، وعديّ بن الرقّاع العاملي تـ (٩٥ه) كان مُعاصراً لجريرٍ، مُهاجياً لهُ، مُقدَّماً عندَ بني أُميَّة، مدَّاحاً لهم، وحاتم الطَّائي تـ (٤٦ق ه) شاعرٌ عربيٌ جاهليٌّ اشتهرَ بكرمهِ وجودهِ.

(أ)- تكرارُ المعَاني :

كثيرةٌ هي المعاني المُتكرِّرةُ في هذا البابِ ، واللافتُ للنَّظرِ أنَّها تتلاقى أحياناً عندهُما كما في قولِ الرَّضي :

رَمَوْني بالعُيُوبِ مُلفَّقاتٍ وقدْ عَلِمُوا بأنِّي لا أُعابُ

وقولِ أخيهِ:

عِبْتُمُ مَنْ ليسَ فيهِ للَّذي عابَ مَعَابُ

المعْنى واحدٌ، والشَّكْوى واحدةٌ ، والأوَّلُ يَشْكُو (الأعَادِي) ، والثّاني يَشْكُو (الحُسَّاد) ، يَشْكُو التُّهمةَ الباطلةَ. وقولهما: (بالعُيُوبِ ، وعبْتُمْ) يُوحي بأنَّ كلا الأخوينِ مُنزَّهٌ عن أيِّ عيْبٍ، وهذا نهايةُ الفَخْرِ الملحُوظِ أيضاً في قولِ الأوَّلِ لأبناءِ أعْمَامهِ على الوزنِ الوافرِ:

أرُونِي منْ يقُومُ لكُمْ مَقَامي أرُوْنِي منْ يقولُ لكُمْ مَقَالي ؟

وفي قولِ الثّاني:

فقُلْ لِمَعَاشرٍ رَجَمُوا حِمَامي أرُوْنِي منْ ينوبُ لكُمْ مَنَابي

كلُّ شيءٍ يبعثُ على (التَّلاقي) ، التَّلاقي في : (المعْنى ، والوزنِ ، والاستفهامِ بمنْ ، والفعلِ أروني) ، ناهيكَ عن الخطابِ ، إذ هو لأبناءِ أعمامهما . وتكرارُ الفعْلِ (أرُوني) بهذهِ الوضعيَّةِ يُوحي بأنَّ الأخوينِ دُونهما كُلُّ الرِّجالِ ، ومن أجلِ ذلك كانا هَدَفاً لكُلِّ حاقدٍ وحاسدٍ ، هَدَفاً غيرَ شريفٍ ، نلمحُ ذلكَ في قولِ الرَّضي: (مُلفَّقاتٍ) . ولاحظ معي جمالَ قولِ

الأوَّلِ: (مَقَامي ، ومَقَالي)، وقولِ الثّاني: (حِمَامي ، ومنَابي) ، إنَّها لغةٌ واحدةٌ مُسْتنبتةٌ من حَقْلٍ شريفيٍّ زَاخِرٍ بلُغةٍ مُمُوسقةٍ تُقْبِلُ عليها النَّفْسُ مزْهوَّةً ، ولا عَجَبَ ففي بيتِ الرَّضي انتشاءٌ وطربٌ ؛ لموسيقيَّتِهِ المُتناغمةِ.

ومن تكرارِ المعَاني أيضاً قولُ الرَّضي في وصْفِ (العِيْسِ):

والعِيْسُ تلْطِمُ خَدَّ كُلِّ مَفَازةٍ وتُرِيْقُ ما أبْقَى المزادُ وتَمْتَرِى

وقولُ المُرْتضى:

بأيْدٍ يَغُلْنَ البُعْدَ منْ كُلِّ نَفْنفٍ ويطْوينَ طيَّ الأتْحَميِّ البَسَائِطَا

فالمعْنى واحدٌ كما نرى، فالنَّاقةُ لا يُوقفها شيءٌ ، وما التفتتْ يوماً إلى ألمٍ ؛ لأنها هوجاء تُخِيفُ الظَّلامَ... تُلْقي الأجنَّةَ قَتْلى في مسالكها...تُباري نُجُومَ اللَّيلِ بالبيضِ والقنا من قوَّتِهَا ، كلُّ ذلك أوْحَى بهِ هذهِ الأفعال: (تَلْطِمُ ، تُرِيْقُ ، يَغُلْنَ ، يَطْوينَ).

ووجدتُّ بعضَ المعَاني تتكرَّرُ عندَ كُلٍّ منهما كأن يقولُ الرَّضي:

فيومٌ للمكارمِ والعَطَايا ويومٌ للحميَّةِ والإباءِ

ويقول:

فيومُ نِزَالٍ مُشْمِسٌ منْ سُيُوفهِ ويومُ نَوَالٍ مَاطِرٌ منْ عَطَائهِ

فالمعْنى واحدٌ ، ولكنَّ أين البيتُ الأوَّلُ من الثّاني ؟ وكأنَّ قائلهُما غيرُ واحدٍ. وها هو ذا يقولُ:

ألا لا أعُدُّ العيشَ عيْشاً مع الأذى لأنَّ قعيدَ الذلِّ حيٌّ كميِّتِ

ويقولُ:

وما العيشُ عِنْدِي إلا الإباءُ وبُعْدِي عن المنزلِ المُسْتباحِ

لا شكَّ في وحْدةِ المعْنى ، فالرَّضي لا يَسْمَحُ لكفِّهِ ولا لنفْسهِ أنْ تُقْبلَ على العَارِ.

ومن ذلك قولُ المُرْتضى عن (الصَّاحبِ):

منْ لي بخلٍّ يَسْتوي لي عندهُ يُسْري وعُسْري والغِنَى والحَاجُ

فهذا المعْنى قريبٌ من قولهِ:

وواجِدٌ عندهُ عَزْلي وتوليتي ومُسْتوٍ عنْدَهُ فَقْرِي وإيسارى

ووجدتُّ المُرْتضى يُكْثِرُ من قولهِ: (منْ لي ، ومن أينَ لي)، وهو في هذا كأخيهِ القائلُ:

منْ لي بهِ سَمْحاً إذا صَفِرَتْ من القومِ الوطابُ

والقائِلُ:

منْ لي بهِ يا دَهْرُ والأ يَّامُ كالِحَةٌ غِضَابُ

فالتِّكْرارُ في قولهما: (مَنْ لي) يُوحي بأنَّ الزَّمانَ تبخَّلَ عليهما بصديقٍ ماجدٍ ، طَمُوحٍ، صديقٍ لا يَسْتطيلُ عليهِ عابُ. ويقولُ المُرْتضى أيضاً:

ومنْ ذا كانَ للخُلفاءِ مثْلي وقد مسَّتْ أسِرَّتُهم ثيابي ؟

ويقولُ:

وتخصَّصْتُ بالمُلوكِ يُلبُّو نَ نِدَائي ويسْمعُونَ كلامي

هُنا المعْنى مُتقاربٌ ، فالمُرْتضى طارَ ذِكْرُهُ في الأفاقِ ، مُقيماً في عَرْشِ الخُلفاءِ يسمعُونَ ويطيعُونَ. والفعلُ (مسَّتْ) يروقني ويُدْهشني ، فالمُرْتضى بلغَ هذهِ المنزلةَ لمجرَّدِ أنْ حفَّ ثوبهُ أسِرَّةَ الخُلفاء ، فما بالُنا لو صافحهُم أوْ عانقهُم !

(ب)- تِكْرَارُ الفِعْلِ:-

يُعدُّ الفعْلان: (حلفْتُ، وسَلي أوْ سَلْ) أكثرَ الأفْعَالِ دوراناً، ودلالةً على الفَخْرِ بالنَّفْسِ، ويأتي الأوَّلُ دائماً في (الماضي) كقولِ الرَّضي:

حَلَفْتُ بربِّ البُدْنِ تَدْمَى نُحُورُها وبالنَّفَرِ الأطْوارِ لَبُّوا وعرَّفُوا

لأبْتَذِلنَّ النَّفْسَ حتّى أصُونَهَا وغَيْرِيَ في قيدٍ من الذلِّ يَرْسُفُ

وقولِ المُرْتضى:

حَلَفْتُ بالبيتِ طافَتْ حولَهُ عُصَبٌ من لائِمٍ رُكْنَهُ أوْ ماسِحٍ مَسَحَا

.....

لقد حللْتُ من العلْيَاءِ أفْنيةً ما حلَّها بشرٌ نحو العُلا طَمَحَا

وقد لاحظْتُ أنَّ (جوابَ القسمِ) يأتي عندَ الرَّضي في صَدْرِ البيتِ التَّالي، ويأتي دائماً عندَ أخيهِ بعدَ عِدَّةِ أبياتٍ كما في النَّموذجينِ السَّابقينِ، ويأتي أحياناً غيرَ مُؤكَّدٍ، وأحياناً يأتي مُؤكَّداً بـ (لام) التَّوكيدِ الدَّاخلةِ على الفعْلِ المضارعِ، من مثل قولِ الأوّلِ: (لأبتذلنَّ)، وقولِ الثّاني: (لأُمْطِرنَّ)،

و(لقد) كما في البيتِ الأخيرِ. وقد لاحظتُ أيضاً أنَّ المُرْتضى أحياناً يأتي بالفعْلِ (أقْسَمْتُ) بدلاً من (حَلَفْتُ)، كأن يقول: (أقْسَمْتُ بالبيتِ الحَرَامِ ، فأُقْسِمُ بالبيتِ) وهكذا.

وقد يأتي بـ (الضَّميرِ) العائدِ على البيتِ كما في قولهِ:

حلفْتُ بهِ طافَ الحجيجُ ببيتهِ

والعِلَّةُ واضحةٌ ، فأيُّ بيتٍ أشْرفُ من بيتِ اللهِ يفتخرُ بهِ.

وأتي الفعلُ الثّاني دائماً للدلالة على (الأمْرِ)، كأن يقول الرَّضي:

سَلِي بي أَلَمْ أنْغَلَّ في لَهَواتِهَا وفحْلُ الرَّدى دُوني بنابيهِ يَصْرُفُ

وهكذا يَمْضي. ويقولُ المُرْتضى:

سَلْ عن ضرابي وعن طَعْني لَدَى رَهَجٍ نَحْرَ الكميِّ وهاماتِ الكراديسِ

الفعْلُ في بيتِ الرَّضي لِسَائِلةٍ عنهُ، وفي بيتِ أخيهِ لغيرِ مَعْلُومٍ، وكلاهُما يتَّخِذُ منهُ أداةً للإشارةِ إلى أنَّهُ الفارِسُ الوثَّابُ الّذي يَرْمي الأعَادِي بالصَّوارمِ والصَّواهِلِ. وقد لاحظتُ أنَّ الرَّضي يُكرِّرُ قولهُ: (سَلِي بي أَلَمْ) دونَ أدْنى تغييرٍ، والّذي يتغيَّرُ هو الفعلُ الواقعُ بعد الاستفهامِ، إذ هو: (أنغلّ، أحْمِلْ، أثْنِ، أصْبِرْ) في مُحاولةٍ للكشْفِ عن بُطولتهِ أمامَ السَّائلةِ.

وتُعدُّ أيضاً كلمةُ (صَعْدَتي) من أكثرِ الكلماتِ دوراناً في هذا البابِ، ومن ذلك قولُ الرَّضي:

أبْقَتِ الأيَّامُ منِّي صَعْدةً تَزْبُنُ العَاجِمَ عنها إنْ عَجَمْ

وقولُ المُرْتضى:

أيَّامَ لمْ تَحْنِ النَّوائِبَ صَعْدتي بمرورهنَّ ولا لويْنَ عَمُودِي

بيتُ الرَّضي أدقّ ؛ للإيحاءِ بأنّهُ ظلَّ أقْوى من أخيهِ في مُواجهةِ الغوائلِ ، إذ قال: (أبْقَتْ الأيَّامُ) ، وقال المُرْتضى: (أيَّامَ لمْ تَحْنِ...) ، فالكلامُ على أنَّ النَّوائبَ لمْ تَقْوى عليهِ فترةً ثمَّ كسرتهُ وأحنتْ ظَهْرهُ ، وقد رأيتهُ يُؤكِّدُ هذا بـ (الواو ، واللام ، وقد) في قولهِ:

ولقد تعرَّقتِ النَّوائِبُ صَعْدَتي

ومن تكرارِ الكلمةِ تكرارُ ألفاظِ (السِّنينِ) كأن يقول الرَّضي:

عِشْرونَ أعْجِلنَ الصِّبا وجُزْنَ بي غاياتهِ وما قضينَ وَطَرِي

ويقولُ أخوهُ:

خَطَوتُ عَدَا العِشْرينَ أهْزَأُ بالصِّبا فلمَّا نأى عنِّي تضاعَفَ هَمُّهُ

المعْنى واحَدٌ ، كلاهُما شابَ وعجُزَ بعد سنِّ العشرين ، فما بالُ: (الثّلاثين ، والأربعين ؟) ، تأمّل قولَ الرَّضي:

والتفاتٌ إلى التَّصابي وقد أسْـ ـرَعَ بي جامِحُ الثَّلاثينَ رَكْضا

وقولَ أخيهِ:

وإذا ليالي الأربعينَ تكاملتْ للمرءِ فهو إلى الرَّدى منْ حالقِ

تُعضِّدُ الأبياتُ فِكْرةً شاعَتْ في نُفُوسِ الشُّعراءِ ، فكرة حُبِّ الشَّبابِ عن الشَّيبِ ، والمُرْتضى أشْبَعَ فينا هذهِ الفِكْرةَ بقولِهِ:

كَرِهْتُ الأربعينَ وقد تَدَانتْ فَمَنْ ذا لي بردِّ الأربعينا ؟

الفكرةُ بيِّنةٌ مُؤكَّدةٌ في خَلَدِ الرَّجُلِ ، فمَنْ بلغَ الأربعينَ صَارَ مُقْبراً ، وهذا ما يُؤرِّقُ المُرْتضى ، ويُطْفئُ في نفْسهِ حدائقَ المسرَّةِ ، ولم لا وهي تقتلُ فيهِ النَّشاطَ والأملَ ، العزيمةَ والصَّبرَ ، تقتلُ فيهِ الانطلاقَ نحو النُّجومِ ؛ لملامستها ، والإمْسَاكِ بها. ولاحظنا أنَّ نوازعَ نَفْسِ الأخوينِ للتَّصابي غيرُ واحدةٍ ، فالرَّضي طلَّقَهُ في سنِّ (الثَّلاثينِ) ، وطلَّقهُ أخوهُ في سنِّ (الأربعينِ).

(ج)- تكرارُ التَّأْكيدِ ، وهذا النَّوعُ دونَ من سبقهُ ، ومنهُ قولُ الرَّضي:

أقِلْني ، أقِلْني نَظْرةً ما احْتسبْتُهَا فقدْ أنْهَلتْ قلبي غليلاً وعلَّتِ

وقولُ المُرْتضى:

باللهِ يا أيَّامَ يَثْربَ عُودي عُوْدي لِبَلِّ حَشَاشةِ المعْمُودِ

وقولهُ:

إنْ حزَّ حزَّ مُطبَّقاً أوْ قالَ قا لَ مُصدَّقاً أوْ رامَ رامَ مُطهَّرا

وهذا النَّوعُ لم يتجاوز الفعلينِ: (الأمر ، والماضي) ، ويأتي للتأكيدِ على ترسيخِ قيمةِ النَّوعِ المُتكرِّر ، وإبرازِ دورهِ الجمالي.

(د): تكرارُ الحَرْفِ:-

مُمعِنُ النَّظرِ في هذا البابِ يقفُ على بعْضِ الحُروفِ التي جاءت للتأكيدِ على الفَخْرِ بـ (النَّفْسِ)، وكان لتكرارها دورٌ فاعِلٌ في الكشْفِ عن هذهِ الدِّلالةِ، هى:

(أ)- إنِّي، وتأتي للدلالةِ على الآتي:

***- الشَّجاعة، كأن يقول الرَّضي:**

وإنِّي لأقْصِفُ بَطْشَ الفتى ولَوْ ردَّ باعَ القَضَاءِ المُتَاحِ

ويقولُ المُرْتضى:

وإنَّني كُلَّ مَنْ شاغَبْتُ أفْرِسُهُ ولَمْ أزَلْ في الأعادِي غيرَ مَفْروسِ

بيتُ الرَّضي أدلُّ على الشَّجاعةِ من خلالِ مُبالغةٍ مَمْقُوتةٍ لا تقعُ من شاعرٍ مثله، شاعرٍ رفيعِ بيُوتِ المَجْدِ. وأرى الفعلان: (أقْصِفُ، وأفْرِسُ) مُتكافئانِ في الدِّلالةِ على البَطْشِ، و (كلَّ) تُوحي بمُطْلقِ شجاعةِ المُرْتضى.

***- العَزْم، فهذا الرَّضي يقول:**

وإنِّي لدفَّاعٌ بيَ العَزْمَ والمُنى إلى كلِّ ليلٍ يَعْقِدُ الطَّرْفَ نَجْمُهُ

ويقولُ المُرْتضى:

وإنِّي ببرْحِ الأمْرِ في القومِ ناهِضٌ وأنتَ عنِ الأمْرِ المُبرِّحِ خَانِسُ

أعتقدُ أنَّ بيتَ المُرْتضى لا يثبتُ أمامَ بيتِ أخيهِ، إذ أين قولهُ: (ناهِضٌ) من قولِ أخيهِ: (لدفَّاعٌ) ؟ ودفَّاعٌ لماذا ؟ للعزْمِ والمُنى، مُنى حواملٌ مُثْقلةٌ عِشَارٌ. وتأمّل جمالَ قولهِ: (إلى كلِّ ليلٍ.....)، إذ يُوحي بأنَّ عَزْمهُ

يَفْرَقُ منهُ كلُّ أسْمَرَ عسَّالٍ، عَزْمٌ مضَّاءٌ لا تَنْزوي مواهبهُ. ووجدتَّ هذا الحرْفَ يُشيرُ أيضاً إلى دلالةِ (الوفاءِ) عندَ الرَّضي، و (الودِّ) عندَ أخيهِ ، كأن يقول الأوّل:

وإنِّي لأحفظُ غيبَ الخليلِ إنْ ضاعَ واسْتَلبتهُ اللَّواحِي

ويقولُ الثّاني:

إنِّي وأصْدَقُ قولٍ ما نطقْتُ بهِ أرْعَى من الوُدِّ ما أرْعَى من النَّسَبِ

كلاهُما في عَيْني تخطَّفَ أبْصَارَ الحُسْنِ.. توسَّعَ في الفَضْلِ توسُّعاً فِضْفاضاً في زمنِ الأذى. وأشارَ هذا الحرْفُ أيضاً إلى دلالةِ (عدمِ الحُبِّ) عندَ الرَّضي، و (الحرمانِ) عندَ أخيهِ، إذ قال الأوَّلُ:

وإنِّي لا أُوامِقُ ثُمَّ إنِّي إذا وامَقْتُ يَوماً لا أُقالى

وقال الثّاني:

وإنِّي لأنْهَى النَّفْسَ عن كلِّ لذَّةٍ إذا ما ارْتَقَى منها إلى العِرْضِ وَصْمُهُ

بيتُ المُرْتضى يُخْتزنُ بينَ الضُّلوعِ، يُخْتزنُ في حبَّةِ القلبِ ؛ لأنّه ينمُّ عنِ النَّسْلِ الخالِصِ الكريمِ، إذ أين حِرْمانهُ من حِرْمانِ أخيهِ الّذي أراهُ بنى بيتهُ على حِقْفٍ مُنْهالٍ من الرَّمْلِ ؛ لأنّه لا غضاضةَ في الحبِّ. وأراهُ واقِعٌ في تناقُضٍ لا محالةَ، فمن زَعَمَ آنفاً بأنّه لا يُوامِقُ هو من قال:

فلا تَعْجبي أنِّي تعرَّقني الضَّنى فإنَّ الهَوَى يَقْوى علىَّ وأضْعُفُ

(ب)- لي، وتأتي لبيانِ ما لهُما من أمورٍ عظامٍ مُعْجبةٍ، هى عندَ الرَّضي: (المُهْجةُ، والسَّطْوةُ، والعَزْمُ)، وعندَ المُرْتضى: (الشَّاهقاتُ الباسِقاتُ، والنَّظَرُ السَّامي، ومنزلٌ فوقَ أسْماكِ المجرَّةِ)، وكُلها تدورُ في حيِّزِ الفَخْرِ بـ (العُلى، والشّجاعةِ)، فتأمّل قولَ الرَّضي:

لِي مُهْجةٌ لا أرى لها عِوَضاً غيرَ بُلُوغِ العُلى ولا ثمنا

وقولَ أخيهِ:

لِيَ الشَّاهِقَاتُ الباسِقَاتُ من الذُّرا وفي مَحْتِدِي هاماتِهِ وغَوَارِبُهْ

كلاهُما مطْبُوعٌ على المَجْدِ، مُؤيَّدٌ بـالعَزْمِ ، يَجِلُّ عنِ النَّظائرِ والشُّكُولِ، وقد جاءا بهذا الحرْفِ ؛ للتأكيدِ على أنَّ هذا من خصائصهما دونَ البريَّةِ.

(د)- المُوسيقى:

تنحصرُ ظواهِرُ المُوسيقى فيما يلي:

(أ)- الوزنُ:

جاءت الأوزانُ التي نظمَ عليها الأخوانُ شِعْرَ الفخْرِ كالتَّالي:

أولاً : البُحُورُ التَّامةُ عندَ الرَّضي والمُرْتضى:

الوزنُ	عددُ القصائدِ	الجملة	الوزنُ	عددُ القصائدِ	الجملة
الطَّويلُ	١٠		الطَّويلُ	١٣	
المُتقاربُ	٦		الكاملُ	١٠	
الوافرُ	٦		البسيطُ	٨	
البسيطُ	٤		الوافرُ	٤	
الكاملُ	٤		الخفيفُ	٣	
الرَّجزُ	٣		الرَّجزُ	٣	
الرَّملُ	٢		السَّريعُ	٢	
المُنْسرحُ	٢				
السَّريعُ	١				
الخفيفُ	١				
الهَزَجُ	١				

ثانياً : البحورُ المجزوءةُ:

م الكامل	١		م الرَّمل	١	٤٤
م الرَّجز	١	٣٨			

بالنظرِ إلى الجدْولِ السَّابقِ نُلاحِظُ الآتي:

(أ)- أتى البحرُ الطَّويلُ على رأْسِ البُحُورِ التي نظمَ عليها الأخوان فنَّهُما الفَخْري ، وهو بحرٌ يشيعُ في الشِّعْرِ العربيِّ القديمِ بصورةٍ كبيرةٍ ، " ويُعْطي إمكانيَّاتٍ للسردِ ، وللبسطِ القصصي ، والعرضِ الدِّرامي ، ولهذا نجدهُ يكثُرُ في أشْعارِ السِّيرِ والملاحمِ واحْتَواءِ الأساطيرِ". [١] ومن المعروف أنَّهُ والبحرُ البسيطُ "من أطْولِ البُحورِ وأحْفَلُهَا بالجلالِ والرَّصانة". [٢]

(ب)- أتى المُرْتضى بالبُحُورِ الفُحُولِ على رأسِ البُحُورِ الأُخرى كما هو مُعْتادٌ عندَ الشُّعراءِ القُدامى ، ونرى الرَّضي يُخالِفهُ في هذا إذْ أتى بـ (المُتقاربِ فالوافرِ) قبلَ (البسيط والكامل).

(ج)- لمْ ينظمْ الأخوانِ شيئاً على هذهِ البُحُورِ: (المُضارع ، المُقْتضب ، المُتدارك ، المديدُ ، المُجتثّ) ، وأراهُما في هذا كأغلبِ الشُّعراء إذا استثنينا بحرَ (المُتدارك) الّذي يستخدمهُ شُعراءُ الحداثةِ اليوم بشكلٍ كبيرٍ جدَّاً ، وكفانا علماً أنَّهُ " يأتي في المرتبةِ الثّانيةِ في كثرةِ

١- مُوسيقى الشِّعْرِ العربي بينَ الثَّباتِ والتَّطوُّرِ د/ صابر عبد الدَّايم ص ١٠٨ ط ٣ ط الخانجي ١٩٩٣م.

٢ - المُرْشِدُ إلى فهمِ أشْعارِ العربِ وصناعتها د/ عبد الله الطيِّب ١٧٣/١ ط١ ط دار الفكر ١٩٧٠م.

الاستعمالِ في الشِّعْرِ الحُرِّ بعدَ الرَّجزِ ، حتّى لقد كتبَ بعْضُ الشُّعراءِ بالشِّعْرِ الحُرِّ دواوينَ كاملةً منه كمحمود أمين العالم الّذي كتبَ بهِ وحْدَهُ ديوانَهُ " أُغْنية الإنسان" وهو ديوانٌ غيرُ صغيرٍ". (١)

(ب)- التَّصْريعُ :

لا أرْتابُ أنَّ ظاهرةَ التَّصْريعِ في مطالعِ القصائدِ تخضعُ للحالةِ الشُّعوريَّةِ التي يكونُ عليها الشَّاعِرُ أثناءَ الولادةِ الشِّعْريَّةِ ، وبالتَّالي تتفاوتُ منْ شاعرٍ لشاعرٍ في الجودةِ والإتقانِ..في القِلَّةِ والكَثْرةِ ، وهذا ما لاحظتهُ عندَ الأخوينِ ، إذ لاحظتُ أنَّهُما مُولعانِ بالتَّصْريعِ ، وآيةُ ذلكَ أنَّ كُلَّ قصائدهما الفخريَّةِ مُصرَّعةٌ ما خلا قصيدةً هزجيَّةً للرضي، وسبعَ قصائد لأخيهِ.

ولاحظتُ أيضاً أنَّ التَّصْريعَ عندهُما أتى سَهْلاً ميسوراً...أتى في غايةِ الجودةِ والإتقانِ ؛ لا سيَّما المُطْلق منهُ ، وقد جاءَ بصورةٍ كبيرةٍ جدَّاً ، ومن ذلك قولُ الرَّضي مُتأثِّراً بسينيَّةِ البُحْتريّ:

خُذي حَدِيثَكِ منْ نَفْسي عن النَّفَسِ وجْدُ المشُوقِ المُعنَّى غيرُ مُلْتَبِسِ

الماءُ في ناظِرِي والنَّارُ في كَبِدِي إنْ شِئْتِ فاغْتَرِفي أوْ شِئْتِ فاقْتَبِسي

ونعلمُ أنَّ البُحْتريَّ نظمَ قصيدتهُ على وزنِ (الخفيفِ) ، وهذا نظمَ سينيَّتَهُ على (البسيطِ). ومن محاسنِ (التَّصْريعِ) في الشِّعْرِ الفخْرِي عندَ المُرْتضى قولهُ على الوزنِ ذاتهِ:

---

١ - أوزانُ الشِّعْرِ الحُرِّ وقوافيهِ د/ محمود على السّمّان ص ٨٠ ط دار أبو العينين بطنطا ١٩٨٠م.

لي منْ رُضابكَ ما يُغْني عنِ الرَّاحِ ونُورُ وَجْهِكَ في الظَّلْماءِ مِصْباحي

وحمرةٌ نُشِرتْ في وجْنتيْكَ بها مَلَكْتَ ناصيتيْ ورْدٍ وتُفَّاحِ

ومن محاسنِ ذلك أيضاً قولُ الرَّضي:

أبرَّ على الأنْواءِ فَضْلي ونائلي وطَالَ على الجوزاءِ قَدْرِي وَمَحْتِدِي

يَدِي أَلِفَتْ بذْلَ النَّوالِ فلوْ نَبَتْ عن الجُودِ يوماً قلتُ: ما هذهِ يدي

وقولُ أخيهِ:

من ذا الطَّبيبُ لأدْوائي وأوْجَاعي أو الرَّفيقُ على همِّي وأزْمَاعي

قد كنتُ جَلْداً ولكنْ رُبَّ أقْضيةٍ خَلطْنَ جَلْداً على البلوى بِمُلْتاعِ

ولا شكَّ أنَّ هذا الحِرْصَ من الأخوينِ على هذا اللَّونِ المُوسيقي يَعْني أنَّهما أدْركا قيمتهُ داخلَ البيتِ ، ومن ثمَّ حاولا توظيفهُ مُوسيقيَّاً ودلاليَّاً بشكْلٍ دقيقٍ لا تكلُّفَ فيهِ ولا تعسُّف ؛ لما جُبلا عليهِ منْ عِشْقٍ للطبعِ والسَّلاسةِ. وها هي ذي عَيْني تقعُ على صُورتينِ من صورِ التَّجديدِ الموسيقي في شِعْرِ الرَّضي ، إذ أتى بكُلِّ الأشْطُرِ مُصرَّعةً في قولهِ:

لا لوْمَ للدَّهْرِ ولا عِتَابا تغَابَ ! إنَّ الجلْدَ منْ تَغَابي

صَبْراً على الضَّراءِ واحْتِسابا أصْبَرُنَا أعْظَمُنا ثَوابا

وأتى بشطْرٍ فقط في نهايةِ القصيدةِ هو قولهُ:

منكَ العَطَايا والمُنى منْ عِنْدِي

هكذا جاءَ. وأحسبُ إتيانهُ بهذهِ الكيفيَّةِ يُوحي بأنَّ القصيدةَ من مشْطُورِ الرَّجزِ ، ولعلَّ النَّاشِرَ هو الّذي تصرَّفَ في كتابتها على شَكْلِ هيئةِ الرَّجزِ التَّامِ.

وأتى المُرْتضى بـ (تصريعٍ داخليٍّ) في قولهِ:

إنْ كانَ زادَ الدَّهْرُ في فِطْنتي فبالَّذي أنْقصَ منْ فِطْرتي

أوْ قوَّمتْ أيَّامُهُ خِبْرتي فبالَّذي طأطأ من صَعْدتي

وكلُّ هذهِ الصِّورِ الموسيقيَّةِ أثرٌ من آثارِ الحداثةِ في شِعْرنا العربيِّ الحديثِ ، أثرٌ ها هو ذا في القصيدةِ الفَخْريَّةِ القديمةِ يُؤكِّدُ القُدْرةَ على خَلْقِ أشْكالٍ جديدةٍ تتميَّزُ بغناها الّذي يُضئُ وهَجَ التَّجْربةِ الفنيَّةِ ، ويُلبِّي حاجةَ الأخوينِ إلى إنْجازِ عَمَلٍ فنيٍّ يَصْدُقُ عليهِ كلمةُ (الإبْداعِ) ، عملٍ يقولُ بأنَّ الشِّعْرَ قادرٌ في كلِّ وقْتٍ على تقبُّلِ إبداعاتِ الشُّعراءِ في اللُّغةِ الأحْلى ، والإيقاعِ النَّموذجِ... في سائرِ مُقوِّماتِ التَّعْبيرِ الكاشفِ عن الشَّاعريَّةِ المُزغْرِدَةِ ، الواقفةِ هُناكَ أمامَ القمَرِ تُباهِي وتُفاخِرُ ، تقولُ : ها أنذا فمَنْ مِثْلي ؟ هكذا كان الشَّريفانِ اللَّذانِ افتخَرَا بخيالِهما...بريقهما الأشْهَى من العَسَلِ ، والأبْهَى من ضَوْءِ الشَّمْسِ... افْتَخَرَا بكُلِّ أنْواعِ المفَاخِرِ...افْتَخَرَا في السِّلْمِ والحرْبِ ، في النَّوْمِ واليقظةِ ، في الغضبِ واللا غضبِ..افْتَخَرَا على الإنْسِ والجِنِّ ، على السُّيوفِ القواطعِ، والنُّجُومِ الطَّوالعِ ، على المواقفِ والمشاهِدِ ، على البهْكناتِ من النِّساءِ ، على.....أُلوفِ البشرِ كما يقولُ الرَّضي:

ولَئِنْ بقيْتُ لَكُمْ فإنِّي واحِدٌ أبـداً أُقوِّمُ منْـكُمُ بأُلُـوفِ

والحمدُ للهِ أوَّلاً وآخراً.....!

ثبتُ المصَادرِ والمراجعِ :

(أ)

أبو تمَّام	الدِّيوان بشرح الخطيب التّبيريزي تح/ محمَّد عبدهُ عزّام ط٤ ط دار المعارف ١٩٨٣م.
أبوالعلاء المعرِّي	شروح سقط الزّنْد تح/ مصطفى السقّا وآخرين ، إشْراف د. طه حسين ط الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ١٤٠٨ه = ١٩٨٧م.

ابنُ الأثيرِ	الكاملُ في التّاريخِ ط دارُ الفكرِ بيروت ١٣٨٩ه= ١٩٧٨م
ابنُ جرير الطّبري	تاريخُ الطّبري تح/ محمَّد أبو الفضل إبراهيم ط٣ ط دار المعارف ١٩٧٩م
ابنُ حزم الأندلسي	جمهرة أنساب العرب تح وتعليق/ عبد السَّلام هارون ط٦ ط دار المعارف ١٩٩٩م.
ابنُ خفاجة الأندلسي	الدِّيوانُ تح د / سيِّد غازي ط٢ ط منشأة المعارف بالإسكندريَّة ١٩٧٩م
ابنُ خلّكان	وفيَاتُ الأعيانِ تح د/ إحسان عبّاس ط دار صادر بيروت ١٣٩٨ه= ١٩٧٨م.
ابنُ رشيق	العُمْدةُ في محاسنِ الشِّعْرِ وآدابهِ ونقدهِ تح/ محمَّد محيي الدِّين عبد الحميد ط٥ ط دار الجيل ١٣٠١ه= ١٩٨١م.
ابنُ الرُّومي	الدِّيوانُ تح د/ حسين نصَّار ط٢ ط الهيئة المصريَّة العامّة للكتاب ١٩٩٣م
ابنُ سنان الخفاجي	سِرُّ الفصاحةِ شرح وتصحيح/ عبد المتعال الصَّعيدي ط صُبيح بمصر ١٩٦٩م.
ابنُ عبد ربِّه	العقدُ الفريدُ تح/ أحمد أمين وآخرين تقديم د. عبد الحكيم راضي ط الهيئة العامّة لقصور الثّقافة ، سلسلة الذّخائر ، العدد (١١٣) ٢٠٠٤م.
ابنُ فارس	الصَّاحبي تح/ السَّيِّد أحمد صقر ط عيسى البابي الحلبي

	١٩٧٧م.
ابنُ المعتز	الدِّيوانُ تقديم / كرم البُسْتاني ط دار صادر بيروت بدون تاريخ.
ابنُ منظور	معجمُ لسانِ العربِ تح/ عبد الله الكبير وآخرين ط٣ ط دار المعارف بدون تاريخ.
ابنُ نُباتة السَّعْدي	الدِّيوانُ دراسة وتح/ عبد الأمير مَهْدي حبيب الطائي ط وزارة الإعلام (الجمهوريَّة العراقيَّة) ١٩٧٧م.
د. أحمد بدوي	أسس النَّقْد الأدبي عندَ العرب ط نهضة مصر ١٩٩٦م.
الآمدي	المُوازنة بينَ أبي تمَّام والبُحْتري تح/ السيِّد أحمد صقر ط٥ ط دار المعارف ١٩٩٤م.
	(ب)
البُحْتريُّ	الدِّيوانُ تح/ حسن كامل الصّيرفي ط دار المعارف ١٩٧٧.
بشَّار	الدِّيوانُ جمع وتح وشرح/ الطّاهر بن عاشُور ط١ ط دار السَّلام ١٤٢٩ه= ٢٠٠٨م.
	(ح)
حنّا الفاخُوري	الفخْرُ والحماسةَ ط٥ ط دار المعارف ١٩٩٢م.
الحيسي	الدِّيوانُ تح وتعليق/ عبد العليم عيسى ط وزارة التُّراث القومي والثّقافة مع عيسى البابي الحلبي ١٤٠٢ه= ١٩٨٢م.

	(ز)
الزِّركلي	الأعلامُ ط١٤ ط دار العلم للملايين بيروت ١٩٩٩م.
زُهيرُ بن أبي سُلمى	الدِّيوانُ صنعة أبي العبَّاس ثعلب ط الدَّارُ القوميّة ١٣٨٤ه= ١٩٦٤م.
	(س)
سبط بن التَّعاويذي	الدِّيوانُ تصحيح د. س. مرجليوث ط دار صادر بيروت ١٩٠٣م.
السُّيوطي	المُزْهرُ في عُلومِ اللّغةِ وأنواعها تح/ محمَّد أحمد جاد المولى وآخرين ط دار الفكر بدون تاريخ.
	(ش)
الشَّريفُ الرَّضي	الدِّيوانُ ط دار صادر بيروت ١٣٨٠ه= ١٩٦١م.
الشَّريفُ المُرْتضى	الدِّيوانُ تح/ رشيد الصفّار، راجعهُ وترجم أعيانهُ د. مصطفى جواد ط دار إحياء الكُتب العربيَّة ، عيسى البابي الحلبي ١٩٥٩م.
	(ص)
د.صابرعبد الدَّايم	مُوسيقى الشِّعْرِ العربي بينَ الثَّباتِ والتَّطوُّرِ ط٣ ط الخانجي ١٩٩٣م.
	(ع)

عاتكة الخزرجي	المجموعة الشّعريَّة الكاملة ط حكومة الكويت ١٤٠٧ه = ١٩٨٦م.
د.عبدالحليم حفني	مطلعُ القصيدةِ العربيّة ودلالته النفسيَّة ط الهيئة المصريّة العامّة للكتابِ ١٩٨٧م.
عبد الرّحيم العبَّاسي	معاهدُ التّنصيص على شواهدِ التّلخيص تح/ محمَّد محيي الدِّين عبد الحميد ط عالم الكُتب بيروت ١٣٦٧ه= ١٩٤٧م.
د.عبدالفتّاح الحلو	الشَّريفُ الرَّضي حياته ودراسة شعره ط١ ط هجر ١٤٠٦ه= ١٩٨٦م.
د.عبدالله الطيِّب	المُرْشدُ إلى فهْمِ أشْعارِ العربِ وصناعتها ط١ ط دار الفكر ١٩٧٠م.
العقّاد	خمسة دواوين للعقّادط الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ١٩٧٣م.
على الجندي	الشُّعراءُ وإنشادُ الشِّعْرِ ط دار المعارف ١٩٦٩م.
	(م)
د.محمَّد عبد المُطّلب	قراءاتٌ أسْلوبيَّة في الشِّعْرِ الحديثِ ط الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ١٩٩٥م.
د.محمود على السمَّان	أوْزانُ الشِّعْرِ الحُرِّ وقوافيهِ ط دار أبو العينين بطنطا ١٩٨٠م.
المسْعُودي	مروجُ الذّهبِ ومعادنُ الجوهرِ تح/ محمَّد محيي الدِّين عبد الحميد ط٤ ط المكتبة التُّجاريّة الكُبْرى ١٣٨٤ه=

	١٩٦٤م.
مصطفى صادق الرَّافعي	إعْجازُ القرآنِ والبلاغة النبويّة ط مكتبة مصر ١٩٩٩م.
ملك عبد العزيز	الأعمالُ الشِّعريَّةُ الكاملةُ ط الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ٢٠١٠م.
مِهْيار الدَّيلمي	الدِّيوانُ ط الهيئة المصريّة العامّة لقصورِ الثَّقافةِ ، سلسلة الذّخائر، العدد (١٦٥) ٢٠٠٨م.
	(ي)
ياقوت الحموي	معجمُ الأدباءِ تح د. إحسان عبَّاس ط١ ط دار الغرب الإسلامي ١٩٩٣م.